الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطية الشّعبية

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أحمد دراية-أدرار-

كلِّية: الآداب واللُّغات قسم: اللُّغة والأدب العربي

القواعد التَّعليميَّة في كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر(ت463هـ)

مذكرة تخرُّج مقدَّمة لنيل شهادة الماستر في اللُّغة والأدب العربي

تخصُّص تعليميّة اللّغة العربية

إعداد الطالبين:

* عبد السَّلام مالك

* عبدالله عبَّاسي

إشراف الدُّكتور:

* ابليلة عبدالعزيز

السَّنة الجامعيَّة: 1436-1437هـ/ 2015-2016م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ
دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾

المجادلة: ١١

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والديَّ الكريمين

بارك الله في عمريهما، وإلى أهلي، وأساتذتي

الكرام وإلى كل طلبة العلم.

عبدالسَّلام عبدالله

شُكر وتقدير

من باب من لا يشكر النَّاس لا يشكر الله، ومن باب الاعتراف بالفضل لأولي الفضل، فإنَّنا نتقدَّم بأسمى ألفاظ الشُّكر والتَّقدير لأستاذنا الدكتور ابليلة عبدالعزيز، الَّذي أمدَّنا بالكثير، وأفادنا من خِبرته، وعلمه وآرائه مالا نحصيه. فجزاه الله عنا كلَّ خير.

والشُّكر موصولٌ كذلك إلى جميع القائمين على قسم اللُّغة العربية وآدابها من أساتذةٍ وإطاراتٍ وعمال، لِما وفَّقهم الله من تسخير أنفسهم لخدمة العلم وطلبته.

والشُّكر في الآخر لكلِّ من أسهم من قريب أو بعيد في هذا العمل.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبدالله عبدالسَّلام

مقدّمة

مقدّمـــــــة:

الحمد لله الأكرم الَّذي علَّم الإنسان مالم يعلم، والصَّلاة والسَّلام على من بُعث معلِّما للأمِّيين وعلى آله وأصحابه وسائر عباد الله المصطفَين إلى يوم الدِّين أمَّا بعد:

فإنَّ حقل التَّعليميَّة من أهمِّ المجالات الَّتي يهتمُّ بها المربُّون وأهلُ القرار، في رسم أساليب وفنّيات التَّدريس، ولما كان مجال التَّربية والتَّعليم يهدف إلى بناء الفرد والمجتمع والارتقاء بهما إلى الأفضل، كان لزاماً على العلماء أن يرسموا منهجاً رصيناً لهذا الغرض. والعلم مُنيرُ القلوب ومحرِّك العقول، ومخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، فبه يُهتدى إلى جادَّة الصَّواب، وبه ميَّز اللهُ تعالى الإنسان عن بقيَّة الدَّواب، وأوَّل ماأنْزَل على نبيِّه الكريم من كتابه الحكيم أمراً ودعوةً وحثّا على طلب العلم والصبر في طريق تحصيله، وهو ما امتثل له النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وأصحابه الكرام، ومن بعدهم المسلمون أيَّما اِمتثال، وهو السَّبب في تفوُّقهم في مختلف العلوم، بعد الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وسَبْقهم إلى اكتشاف عديد الظَّواهر، ومعالجتها بطرائق وأساليب لم تصل إليها الدّراسات الحديثة إلا في هذه الأيام.

ولقد جاء الإسلام حاملاً لشريعة تضمَّنت بين طياتها معالمَ واضحةً، وتنظيماً مُحكماً لكل جوانب الحياة البشريَّة؛ الَّتي تَنْتَظِم فيها مختلف المعاملاتِ والعلاقاتِ الاجتماعية والتَّعليمية. هذه الأخيرةُ الَّتي بيَّن اللهُ أساليبها ومناهجها في كتابه العزيز، والَّتي زاد في إيضاحها وتأكيدها نبيُّه الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام مبيِّنا لأساليب التَّعليم، وأخلاق المعلِّمين والمتعلِّمين في سُنَّتِه وأحاديثه الشَّريفة، التَّي انكبَّ العلماء على جمعها في كتب متخصِّصة، كل ذلك من أجْل تِبْيان نهج النَّبيِّ وعلماء العرب في هذا المجال؛ ولعلَّ من أبرز هؤلاء العلماء الإمامُ الحافظُ ابنُ عبدالبر الأندلُسي(ت463هـ)، مُؤَلِّفُ (كتاب جامع بيان العلم وفضله)؛ الَّذي نحن بِصَدَدِ الوقوف على أهمِّ الجوانب التَّعليمية والتَّربويَّة الَّتي جمعها المؤَلِّفُ في كتابه المذكور آنِفًا، والَّتِي صارت فيما بعدُ نِبراسًا يُحْتَذَى به لدى العلماء وطلبة العلم، المتمثِّلةِ في بعض القواعد التَّعليمية الَّتي لابدَّ أنْ يُراعيها كلٌّ من العالم والمتعلِّم، وألاَّ يغفلِا عنها، وهذا لكي تُحقِّقَ العمليةُ التعليميةُ غايتها العلميةَ والَّتربويَّة والحضاريَّة.

أهمية الموضوع:

تكمن أهميَّة هذا الموضوع في كونه يبحث في قضيَّة من أهمَّ القضايا الرَّاهنة في مجال التَّربية والتَّدريس؛ والمتمثلة في البحث عن أفضل الطَّرائق والأساليب الفعَّالة، الَّتي من شانها أن ترقى بالعمليَّة التَّعليمية إلى أفضل المستويات، والَّتي تفضي بِدورها إلى الرُّقي والازدهار في مناحي الحياة المختلفة.

أسبابُ اختيار الموضوع: إنَّ أهمَّ ما دفعنا لاختيار هذا الموضوع:

1.رغبتُنا في معرفة أهمِّ الأساليبِ والطَّرائقِ الَّتي تَقَيَّد بها علماءُ الإسلام في عصرٍ لم تتوفر فيه وسائل التِّقنية، ومعرفة الأسبابِ الَّتي استطاعوا من خلالها، وبتلك الوسائلِ البسيطةِ، أنْ يتألَّقُوا في مختلف العلوم، وأنْ يكونوا قدوةً لغيرهم من العرب والعجم، سالكين على نهجم ومُقتفين آثارَهُم في ميدان التَّربية والتَّعليم.

2.تِبْيَانُ أنَّ القواعد التَّعليميَّة الَّتي توصَّل إليها علماء الغرب حديثا، إنَّما هي قواعدٌ لها جُذورٌ في التُّراث العربي الإسلاميّ، من خلال ما دعا إليه النَّبيُّ الكريمُ في أحاديثِهِ الشَّريفة، ومِنْ بَعْدِه علماء الإسلام في حِكَمِهِم وأقوالهم؛ الَّتي دوَّنُوها في كتبهم ومُؤلَّفاتهم الُمهتمَّة بموضوعِ طلب العلم وتعليمِهِ.

3.رغبتُنَا في اِستنباطِ القواعدِ التَّربويَّة والتَّعليميَّة الَّتي اِشتمل عليها كتابُ جامعِ بيانِ العلمِ وفضلهْ، الَّذي لم يَحْظَ بِنَصيبه من الدِّراسة والبحث، مُقارنةً بِغَيرِهِ من الكُتب الَّتي بحثت في جوانب التَّربية والتَّعليم، مثل كتاب أخلاقُ الرَّاوي والسَّامع للخطيب البغداديّ، وكتاب تذكرة السَّامع والمتكلِّم لابن جُمَاعة.

الدِّراسات السَّابقة:

في حدود ما توصَّلنا إليه من خلال البحث، لم نَقِفْ على كتاباتٍ أو بُحوثٍ في مجال قواعد التَّربية والتَّعليم عند ابن عبدالبرّ، غير بعض المقالات، أو دراساتٍ عامةٍ حول موضوع التَّربية، مثل الدِّراسة الَّتي قام بها الدُّكتور عبدُالبديع الخولّي في كتابه: "الفكرُ التَّربوي في بلاد الأندلُس"، الَّذي تَحَدَّث فيه الكاتبُ عن الفكر التَّربوي عند علماء الأندلُس بصفةٍ عامَّةٍ، وكان من ضِمن هؤلاء العلماء الإمامُ ابن عبدالبر، من خلال كتابه الجامع. وأمَّا الدِّراساتُ الَّتي كتبت عن هذا العالم – ولها علاقةٌ بجوانبَ أُخرى غير المجال التَّربوي فنجد مثلا:

1.دراسة للباحث الطَّاهر بن الصَّادق الأنصاريْ بعنوان: "الحافظُ ابنُ عبدالبر النَّمِريّ (مُحَدِّثًا)" وهي رسالة ماجستير قدَّمها بجامعة الملك عبدالعزيز،كلِّيَّة الشَّريعة، عام 1976م.

2.دراسة للباحث محمد بن محمد بن أحيد وادماديك الموريتاني بعنوان: "الكافي في فقه أهل المدينة"؛ تحقيق كتاب الكافي في فقه أهل المدينة، ومُؤلِّفه ابنُ عبدالبرّ النّمري، وهي رسالة دُكتوراه في الفقه الإسلامي، قدَّمها بجامعة الأزهر، كلِّيَّة الشَّريعة، عام 1975م.

وهذه الدِّراسات الَّتي أشَرْنا إلَيْها لم تتناولِ الجوانبَ التِّعليميَّة عند ابنِ عبدالبرّ، وإنَّما ركَّزتْ على الجوانب التَّربويَّة، الَّتي أشار إلَيها الإمامُ في كتابه.

إشكاليةُ البحث:

ما مِنْ علمٍ إلاَّ وله أُسُسٌ ومبادئُ يقوم عليها ويتميز بها عن غيره، ويَتأكَّد هذا حين تتعلَّقُ هذه المبادئُ والأُسُس بمنهجِ تعلُّمِ العلم وتعليمُه؛ هذا الَّذي خصَّص له ابنُ عبدالبرّ كتابَهُ المذكورُ آنفاً.

- ففيمَ تتمثَّل هذه القواعدُ الَّتي حاول الحافظ الإحاطةَ بها في مُؤَلَّفِه؟ وفيمَ تكمنُ أهميَّتُها؟ وإلى أيِّ مدى يمكن استثمارُها في العملية التَّعليميَّة؟ وكيف يتحقَّق ذلك؟.

المنهجُ المتَّبع:

اعتمدنا في بحثنا هذا منهجَ الاستقراء والتَّحليل أداة لذلك.

منهجُ الاستقراء: ويتجلَّى هذا المنهجُ من خلال استخراج عيّنات من الأحاديثِ، والأقوالِ، والأشعار الَّتي أوعَدَها ابنُ عبدالبرّ في كتابه الجامعْ، وجَعَلَها أساسًا لكثيرٍ من القواعد التَّربوية والتَّعليمية. وتحليل هذه الأحاديثِ والأقوالِ الَّتي تُشِيرُ بصفةٍ أو أُخرى إشاراتٍ تربوية، خاصَّةً ماتعلَّق منها بجانب الأخلاقِ والآدابِ العامَّةِ، أو تعليميَّةً جمعت بين جوانحها مجموع الأسبابِ والطَّرائقِ المعينة على الكسبِ والتَّحصيلِ، شارِحَيْنِ، ومُفسِّرَيْنِ لها، ومُسْتَنْبِطَيْنِ لقواعد التَّعليم والتَّعلُّم، الَّتي استمسك بها العلماء الأوائل، وعلى إثْرِها بَرَعوا في شتَّى المجالات العلميَّة والدِّينيَّة، مُثْبِتَيْنِ لما جاء في متنها بأقوالِ وآراءِ علماءَ مُعاصرين لِقَائِلِيْهَا، أو علماءَ آخرين مُحْدَثِيْنَ عربًا كانوا أو غربيّين.

خطَّة البحث:

ولقد رأَيْنا للإجابة عن الإشكال المطروح اعتماد خطَّة قِوامها، مدخلٌ للبحث، ثمَّ فصلان وخاتمة.

أمَّا المدخلُ فقد وقفنا فيه على بعض المفاهيمِ المتعلِّقةِ بموضوعِ العلم والتَّعليميَّة، كما تطرَّقنا فيه إلى ترجمةٍ مختصرةٍ للحافظ ابنِ عبدالبرّ، وبيَّنا أهميَّة كتابه المقصودِ بالدِّراسة.

وأمَّا الفصلُ الأوَّل فتناولنا فيه أهمَّ القواعدِ التَّربوية التَّعليميَّة المتعلِّقة بأخلاقياتِ العالِم، وآدابَ المتعلِّم، وقد قسَّمنا هذا الفصل إلى مِبْحثين؛ خصّصنا الأوَّلُ منهما للحديث عن الأخلاقياتِ الَّتي يَحْسُنُ بالعالم أنْ يتحلَّى بها في تعامله مع غيره من العلماء والمتعلِّمين، كاجتناب المراءِ، والغُرور، والعُجْب، والحِرْص على نشر العلم، والعمل به.

وخُصِّص الثَّاني لأهمِّ الآدابِ والقيَّم الَّتي يجبُ على المتعلِّم أن يتَّصف بها لاسِيَما مع شُيوخه ومُعلِّميه، وحتَّى مع أقرانهِ من طلبة العلم، كالتَّواضع، ومُلازمة العُلماء، والصَّبر، وعدمُ الحياء في طلب العلم وسُؤالُ العلماء.

وأمَّا الفصلُ الثَّاني فتناولنا فيه أهمَّ القواعد التَّعليميَّة، الَّتي أوْرَدَها الحافظُ في كتابه؛ وقد اِشتمل هذا الفصل على مَبْحثَيْن، عُقِد الأوَّلُ منهما لتلك القواعد التَّعليميَّة المتعلِّقة بالمعلِّم، من حيثُ تهيئتُهُ للمتعلِّمين، وكذا تكرارهُ للمادَّة التَّعليميَّة، وضرورةُ تيسيره لها، مع مراعاتهُ للفروقِ الفرديَّةِ للمتعلِّمين، أمَّا المبحثُ الثَّاني فأشَرْنا فيه إلى جملةِ القواعدِ التَّعليميَّة المرتبطة بالمتعلم، المتمثِّلة في الاستعداد لتلقِّي المعارف، والمذاكرة، والسُّؤال، إضافة إلى الحفظ، والفهم للعلوم.

وأمَّا الخاتمة فقد ضمَّنَّاها مجموعَ النَّتائج المتوصَّلِ إليها من خلال البحث، والَّتي مثلت خلاصة الموضوع.

وقد أفَدْنا مادَّة هذا البحث من جملةِ مصادرَ ومراجعَ منها:

المصادر: كتاب تَذْكِرَةُ السَّامع والمتعلِّم لابن جُماعة(ت733هـ)، وكتاب آداب العالم والمتعلِّم للإمام النَّووي(ت676هـ).

المراجع: كتاب التَّعلُّم أُسُسُه، نظريَّاتُه، وتطبيقاتُه لإبراهيم وجيه محمود، وكتاب آفاتٌ على الطَّريق للسَّيِّد محمد نُوح.

والشُّكر لله أوَّلا، ولاستأذنا الكريم الدكتور عبدالعزيز ابليلة، الَّذي أرشَدنا بنصائحه وتوجيهاته، واللهَ تعالى نسألُ التَّوفيق والسَّداد إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

مدخل:

- مفـــهـــوم العـلـــــــــــــــــم
- مفـــهـــوم التَّعليميَّة وأركـــانُهـــــا
- التَّـعـريف بـابن عبـد البر الأندلسي
- أهمِّية كتاب جامع بيان العلم وفضله

مما لاشكَّ فيه أنَّ العلم قوتُ القلوب، والحياة في أصلها حياة القلوب، وبالعلم تستقيم حياة الشُّعوب، ولقد اهتمَّت به الشُّعوب على مرِّ الأزمان، وبكلِّ ماله صلةٌ به، ذلك أنَّه أساس التَّقدُّم والسِّيادة، وبانتِفائه يدُبُّ الضعف والوهن، ويسود الجهل، ولقد كان الأمر بطلبه والسَّعيُ في تحصيله من أوَّل الأوامر الإلهية لأمَّة الإسلام، قال الله تعالى مُخاطباً نبيَّه الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام:﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ العلق: ١ – ٥.

فأعظِم به من أمرٍ، وأكرم به من توجيه، وإنَّ المتتبّع لتاريخ الشُّعوب والأمم، ليري أثر هذا في تفكيرهم وحضاراتهم، بل وفي سائر ميادين حياتهم المختلفة، وبعد هذا التَّقديم وبما أنَّ موضوع هذا البحث متعلِّقٌ بالعلم وقواعد طلبه، فلا بأس أنْ نقف وقفاتٍ سريعة مع بعض المصطلحات الَّتي تصبُّ في هذا الموضوع، والَّتي مِن شأنها أن تُقرِّب المضامين، والتَّرجمة للمؤلِّف، والوقوف على أهميَّة كتابه.

أوَّلا:مفهوم العلم:

أ.العلم لغةً: يُعَرَّف العلم عند أهل اللُّغة بأنَّه: ''مِن عَلِم الشَّيء بالكسر، يَعلمه عِلماً عرَفه''[1].

وعَلِم الشَّيء عِلماً: عرَفه، وعلِم به، سَعر به ودرى، وعلِم الشَّيء حاصِلٌ؛ أيْقن به وصدَّقه[2].

ومعنى هذا أنَّ العلم يُراد به المعرفة واليقين بالشَّيء. فهو بهذا يعني الوصول إلى حقائق الأشياء.

ب.العلم اصطلاحاً:'' هو مجموعةُ الحقائق والوقائع والنَّظريات، ومناهج البحث الَّتي تزخر بها المؤلَّفاتُ العلميَّة، ونَسَقُ الظَّواهر والعلاقات القائمة بينها''[3].

ويُعتبر حال العِلم معيارُ تقدُّم المجتمعات أو تأخُّرها، وهو الأساس الَّذي تستند إليه في بقائها، وهو الدِّرع الحامي لسيادتها من تبعيَّتِها لغيرها، ويختلف باختلاف المجال الَّذي يبحثُ فيه، لكنَّ العلم الحقيقي هو ذلك العلم الَّذي يدلُّ صاحبَهُ على ربِّه وخالقه، والَّذي يجعله مؤمنا بوحدانيته وأُلُوهيته، ومُصدِّقاً برسالة أنبيائه ورسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، فتتحقَّقُ له بذلك سعادةُ الدنيا والآخرة، وأيُّ فوز، وأيُّ نعمة أعظم من ذلك.

---

(1) محمد أبي بكر عبدالقادر الرَّازي، مختار الصِّحاح، تدقيق: عاصم فارس الخُرساني، دار عمان، عمان، ط9، 2005، ص225.

(2) مَجمع اللُّغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشُّروق الدَّولية، مج1، ط4، 2004، ص624.

(3) يُنظر ساسي سفيان، مقال: مفهوم العلم، الحوار المتمدِّن، ع1057، 2004، 2016/03/17.

ولقد بيَّن ابنُ قيِّم الجوزية(ت751هـ) هذا المعنى بقوله:" إنَّ السَّعادة الحقيقيَّة هي سعادةٌ نفسيَّةٌ رُوحيَّةٌ قلبيَّةٌ، وهي سعادةٌ العِلم النَّافع ثمرتُهُ، فإنَّها هي الباقية على تقلُّبِ الأحوال، والمصَاحِبَةُ للعبد في جميع أسفاره، وفي دُورِهِ الثَّلاثة، وبها يرتقي معارج الفضل ودرجاتِ الكمال، كلَّما طال الأمد اِزدادَتْ قوَّةً وعُلُوّاً، وهذه السَّعادةُ لايعرف قدرها و [لا]يبعثُ على طلبها إلاَّ العِلم بها؛ وإنَّما رغَّب أكثَرَ الخلق عن اكتساب هذه السَّعادة وتحصيلِها وُعُورةُ طريقِها، ومرارةُ مباديها، وتَعَبُ تحصيلِها، وأنَّها لاتُنَالُ إلاَّ على جسرٍ من التَّعب، فإنَّها لاتَحْصُلُ إلاَّ بالجدِّ المحض"[1].

فالعلم من خلال ما ذكره ابنُ القيِّم(ت751هـ) رحمه الله تعالى، هو أساسُ سعادة المؤمن في الدُّنيا والآخرة، لكنَّ أكثرَ النَّاس رغِبُوا عن هذا الفضل لصعوبة الطَّريق المؤدِّية إليه، فالصَّبر طريق تحصيله، والطَّلب والسُّؤال مفتاحه. وعن أهميَّة العِلم قال الإمام الشَّافعيُّ(ت205هـ)رحمه الله[2]:

رأيتُ العـــلم صـــاحبُهُ كريمٌ ... ولـــــو ولَـــدَتْهُ آبـاء لئام
وليس يـــــزال يرفعُــه إلى أن ... يُعَـــظِّمَ أمرَهُ القـــومُ الكِرامُ
ويَتَّبِعُـــــونَهُ في كلِّ حـــالِ ... كراعِي الضَّـــأن تَتْبَعُـــهُ السُّوَامُ
فلولا العـــلم ماسَعِدَتْ رجـــالٌ ... ولاعُـــرِفَ الحـــلال ولاالحـــرام

إنَّ بقاء العِلم أو اندثارُه، وتطوُّره وانتشارُه، أو جموده مُرتبطٌ بمستوى التَّعليم لدى أيِّ مجتمعٍ أو أُمَّة، وقد اتَّخذ العرب قديماً في تلك البوادي والصَّحاري المقفرة أسواقاً موسميَّةً يحجُّ إليها الشُّعراء وأهلُ الحكمة والبيان من كلِّ حدَبٍ وصوبٍ، وكان الواحد منهم ينظُم القصيدة ثم يأتي إلى هذا المجمع ليَعرضها على أهل الحنكة والنَّقد، فإمَّا مَدحُوه وأجزل له الملوكُ في العطايا وقرَّبوه منهم مجلساً، وإلاَّ انتقدوه وقوَّموه. وتوالت الأزمنة حتَّى بدت بوادر هذا الدِّين الجديد الَّذي طفِق النَّاس يدخلون إليه أفواجاً، وليجدوا في بعض أوامره أنَّ طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، بل ضرورةٌ اجتماعية.

بعد اتِّساع رقعته الجُغرافية، أُنشِئت مجالس العلم وحِلَق التَّدريس الَّتي بدأت بتعليم القرءان الكريم والعلوم الشَّرعية لأبناء المسلمين وغيرهم ممَّن دخلوا في هذا الدِّين ،ثم توسَّعت لتشمل علوم اللُّغة والآداب، لتتطور فيما بعد إلى مدارس لها خصائصها ومميِّزاتها التَّعليمية، مانَتَجَ عنه ظهور التَّعليم الممنهج؛ الَّذي يخضع لشروطٍ ومبادئ

(1) سيد العفَّاني، صلاح الأمَّة في علوِّ الهمَّة، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، مج1، ط1، 1997، ص154.
(2) الإمام الشّافعي، ديوان الشَّافعي، تعليق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، مصر، (دط)، (دت)، ص126.

لابدَّ على المعلِّم أوالعالم أنْ يتقيَّد بها، والَّتي تختلف باختلاف العلم المدروس كعلم اللُّغة، أو الفقه، أو الطِّب، وحتَّى علم الفلك و المنطق، وقد بلغ الاهتمام بالعِلم والتَّعليم مبلغاً عظيماً، أدَّى إلى ظهور علماءَ مختصِّين فيهما، هدفهم استنباط أهمِّ الطَّرائق والأساليب الكفيلة بتيسير العمليَّة التَّعليميَّة، ودراسة العلاقات المتبادَلَةبين المعلِّم والمتعلِّم، مِن خلال تأليفهم لكتبٍ متخصِّصة في هذا المجال، وعُقِدت من أجله المؤتمرات والنَّدوات، كلُّ ذلك من أجْل إيجاد جوٍّ مناسبٍ للعمليَّة التَّعليميَّة، ما نتج عنه ظهور ما يُعرف اليوم بالتَّعليميَّة، أو الدّيْداكتيكا، أو فنُّ التَّدريس، وفي ظلِّ هذا الطرح لابدُّ أنْ نَقف على معنى هذا المصطلح.

ثانياً:مفهوم التَّعليمية وأركانها:

أ.التَّعليميَّة لغة: هي مصدرٌ صناعيٌّ لكلمة تعليم، المشتقَّة من الفعل (علَّم)، وهي ترجمة لمصطلح la didactique، المأخوذةُ من الكلمة اليونانية didactikos، أو didaskein.

فهي بهذا تعني فنَّ التَّدريس، أو طريقة التَّدريس، ويرى بعضُ الأساتذة والباحثين أنَّ الدِّيداكتيك أو التَّعليميَّة تعني عِلم التَّدريس.

ب.التَّعليميَّة اصطلاحاً: هي كلُّ ما يهدف إلى التَّثقيف، أو له علاقةٌ بالتَّعليم، وهي فرعٌ من فروع علوم التَّربية، تستهدف جوانب العمليَّة التَّعليميَّة ومُركَّباتها، لتجديد التَّعليم والتَّعلُّم،... كما تهتم بالتَّخطيط لأهداف التَّربية والتَّعليم، ومراقبتِها، وتعديلِها مع مراعاتِها للطَّرائق والوسائل الَّتي تسمح ببُلُوغ الأهداف[1].

والدِّيداكتيكا بهذا المفهوم شاملةٌ لكلِّ عناصر العمليَّة التَّعليميَّة، وهي فرعٌ من فروع عِلم التَّربية العام، تُعنى بالعمليَّة التَّعليميَّة، مِن أجْل تحقيق الأهداف المخطَّط لها مسبقاً.

ب.أركانُها: تقوم التَّعليميَّة على أربعة أركانٍ وهي:

1- المُعلِّم: وهو المنفِّذ والمقوِّم لأهداف النِّظام التَّعليميّ وخططه[2]. فهو المرشد، والموجِّه، والمدير، والميَسِّر للمادة التَّعليميَّة، حتَّى يَسْهُل على المتعلِّم تلقِّيها وفهمَها وكذا استيعابَها.

---

[1] نور الدِّين أحمد وحكيمة سبيعي، المرجع السَّابق، ص36.

[2] يُنظر علي عبدالله العفنان، النُّظُم التَّربويَّة ودورها في تشكيل الفكر والسُّلُوك، مركز الدِّراسات والبُّحوث بقِسم النَّدوات واللِّقاءات العلمية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرِّياض، 2007، ص14.

فالمعلِّم الفعَّال بهذا المعنى لايقدِّم كلَّ المعارف، وإنَّما يكتفي بدور المرشد والموجِّه حيث يفتح المجال أمام المتعلِّم للبحث عن المعارف بنفسه.

2- المتعلِّم: وهو المستهدَف الأوَّل في العمليَّة التَّعليميَّة وهو أساس قيامها، والمتعلِّم الإيجابيُّ هو الَّذي" يقوم بدورٍ نشطٍ في عملية التَّعلُّم، حيث يقوم بالمناقشة، والجدل، وفرض الفروض، والتَّقصِّي، وبناء الرُّؤى من الاستقبال السَّلبي للمعلومات عن طريق الاستماع أو القراءة"[1].

ولقد أعادت الدِّراساتُ الحديثة في موضوع التَّعليميَّة الاعتبار للمتعلِّم، واعتبرتهُ محوراً للعمليَّة التَّعليميَّة فهو يحاور ويناقش ويبحث، ولم يُعد مُسْتَقْبِلاً للمعلومات فحسب، بل صار منتجاً ومستنبطاً لها من خلال نشاطه الصَّفِّي، أو اللاَّصفِّي.

3- المُحتوَى:

ويتمثَّل في المادَّة التَّعليمية، الَّتي يهدف المعلِّم نقلها للمتعلِّم، ومن مرادفاته أيضاً المقرَّر الدِّراسي، والمنهاج التَّربوي ويُعد المحتوى أو المنهاج"ضرورياً في العمليَّة التَّعليميَّة؛ لأنَّ بواسطته يتمُّ نقل المعارف من المعلِّم إلى المتعلِّم، وهو أساس هذا التَّواصل، إذ لايمكن أن تقوم دون وجود محتوى"[2].

4- الوسائل التَّعليميَّة:

حَسَب محمد محمود الحيلة الوسائل التَّعليميَّة هي "أجهزةٌ، وأدواتٌ، وموادُّ يستخدمها المعلِّم لتحسين عملية التَّعليم والتَّعلُّم وتقصيرِ مدَّتها، وتوضيحِ المعاني، وشرحِ الأفكار، وتدريسِ التَّلاميذ على المهارات، وغرسِ العادات الحسنة في نفوسهم، وتنميةِ الاتجاهات، وعرضِ القيم دون أن يعتمد المدرِّس على الألفاظ والرُّموز والأرقام، وذلك للوصول بطلبته إلى الحقائق العلمية الصَّحيحة، والتَّربية القيِّمة بسرعةٍ وقوَّةٍ وبِتَكْلُفةٍ أقلّ"[3].

ويُمكن أن يُضاف إلى هذه العناصر أو المكوِّنات طرائقُ وأساليبُ التَّدريس، والَّتي تختلف باختلاف المادَّة العلميَّة والقُدُرات العقليَّة للمتعلِّمين، وهي الَّتي تساعد المعلِّم في تبليغ رسالته للمتعلِّم. وقد انتشر استخدام الوسائل

---

(1) حسن زيتون وكمال عبدالمجيد زيتون، التَّعلُّم والتَّدريس من منظور النَّظريَّة البنائية، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2003، ص75.

(2) احمد محمد عبدالخالق، مبادئ التَّعلُّم، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندرية، ط2، 2011، ص22.

(3) محمد محمود الحيلة، أساسيات تصميم وإنتاج الوسائل التَّعليميَّة، دار المسيرة للنَّشر والتَّوزيع، عمان، ط1، 2000، ص32.

التَّعليميَّة في مجال التَّعليم في هذا العصر، بل أصبحت عنصراً أساسياً من عناصر العمليَّة التَّعليميَّة، و"هناك تصنيفاتٌ كثيرةٌ للوسائل التَّعليميَّة، تختلف باختلاف الأُسس الَّتي اعتمدها المؤلِّفون، حيث تشتمل هذه الوسائل أنواعاً مختلفةً، منها اللُّغة اللَّفظية المكتوبة، والمسموعة، والخرائط، والرسوم البيانية، والتَّسجيلات الصَّوتية، والصُّور الفوتوغرافية، والأجهزة التَّعليميَّة، واللَّوحات التَّعليميَّة، والنَّماذج والعيِّنات، والحسابات الإلكترونيَّة المستخدمة في التَّعليم، والفيديو المتفاعِل، وشبكة الإنترنت"[1]، وكلُّ ماله صِلةٌ بإدارة العمليَّة التَّعليميَّة، وإبلاغ المعارف والمهارات للمتعلِّمين.

على الرُّغم من حداثة التَّعليميَّة بوصفها علماً مُستقلاً، أو فنَّاً كما يفضِّل البعض تسميتها، وإن اهتمَّ بدراستها وتقييدِها عِلمُ التَّربية الحديث، إلاَّ أنَّنا نجدُ لنظرياتها ومضامينها آثاراً وجذوراً في التُّراث العربيّ، وهذا من خلال ماتضمَّنته آياتُ القرءان الكريم، أو أحاديثُ سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وحتَّى اجتهاداتُ العلماء المسلمين، الَّتي دوَّنوها في كتبهم ومؤلَّفاتهم، ككُتب الصِّحاح الَّتي أفردت أبواباً خاصَّة بطلب العلم وطرائق التَّعليم، وخصال كلٍّ من العالم والمتعلِّم.

وغيرُ بعيدٍ من هذا فقد كتب في هذا المجال علماء الفقه والشَّريعة، ومن ذلك ما قام به الإمام ابنُ عبدالبر، الَّذي نحن بصدد الوقوف على جوانب من القواعد التَّعليميَّة الَّتي أشار إليها في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، من خلال حديثه عن طلب العلم، وفضائل التَّعلُّم، والقواعد الَّتي يجب مُراعاتها في ذلك كلِّه مِن لَدُن المعلِّم والمتعلِّم على حدِّ السواء.

ثالثاً: التَّعريف بابن عبدالبر:

1- مولدُه ونسبُه:

هو الإمام العلاَّمة، حافظُ المغرب، شيخُ الإسلام، أبو عمر يوسف بنُ عبدالله بنُ محمد بنُ عبدالبر بنُ عاصم النَّمري، الأندلُسي القُرطُبِيّ المالكي، صاحب التَّصانيف الفائقة، وُلد سنة ثمانٍ وستِّين وثلاثُ مائة في ربيع الآخر، وقيل: جمادى الأولى، فاختلَفت الرِّواياتُ في الشَّهر عنه[2].

---

[1] قاسي أونيسة، الوسائل التَّعليميَّة وطرائق التَّدريس، وعلاقتهما بالضَّغط النَّفسي لدى معلِّمي التَّربية الخاصَّة، مذكِّرة ماجستير مخطوطة، جامعة مولود معمري، تيزي وزُّو، 2014، ص68.

[2] شمس الدِّين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، تحقيق وتخريج: شُعيب الأرناؤُوط، ومحمد العَرْقسوسي، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ط11، 1998، ج 18، ص153،154.

ب- نشأتُهُ وطلبُهُ للعلم:

بدأ ابنُ عبدالبر في طلب العلم وعُمرُهُ إذْ ذاك قد أربى على الاثنين والعشرين عاماً، ومات أبوه وله من العمر اثنا عشر عاماً، فَوَفَاةُ أبيه ونشأتُهُ يتيماً لعلَّها السَّبب في تأخُّره عن طلب العلم إلى ذلك السِّنِّ، وكان من المعتاد في أتْرابه من الصِّبيان في سنٍّ كهذا أن يكونوا قد درجوا في حلقات العلم وشبُّوا[1].

[إذن فقد] نشأ ابن عبدالبر وترعرع في كَنَف والده الإمام أبي محمد؛ وكان فقيهاً عابداً متهجِّداً، محدِّثاً رفيع المكانة مقرَّباً من المشايخ، وكان من أهل الحَلِّ والعَقد، الَّذين اختارهم الخليفة الحَكَمُ لِيشهدوا على العهد الَّذي كتبه لابنه هشام بالخلافة بعده، ولقد تفقَّه على كبار علماء عصره؛ مثل أحمد بنِ سعيد بنِ حزم[2]، وأبي الوليد بنِ الفرض[3]، حيث طال عُمُرُه وعلا سندُه، وتكاثر عليه طلبة العلم، ثمَّ تصدَّى للتَّأليف والتَّصنيف والتَّوثيق والتَّضعيف، إلى أن سارت بتصانيفه الرُّكبان وخضعت لِعلمه علماء ذلك الزَّمان[4].

ج- مؤلَّفاته:

كان ابنُ عبدالبر كثير التأليف، ومن مؤلَّفاته[5]:

- أخبار أئمة الأمصار.
- اختلاف أصحاب مالك بن أنس واختلاف روايتهم عنه.
- الانتقاء في فضائل الأئمَّة الثَّلاثة الفُقهاء.
- بهجةُ المجالس وأُنس المجالس، وشحذُ الذَّاهن والهاجس.
- كتاب جامع بيان العلم وفضله.
- الاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار ممَّا رسمه مالك في موطَّئه من الرأي والآثار.

---

(1) الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج18، ص154.

(2) أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الأزدي، جذوة المقتبَس في ذكر وُلاة الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط3، 1989، ج1، ص256.

(3) هو الإمام أبو الوليد عبدالله بن يوسف القرطبي، صاحب تاريخ الأندلس، كان فقيهاً عالماً، توفي سنة 403هـ.

(4) إبراهيم محمد طه بويدَّان، جهود ابن عبدالبر الأندلسي في مباحث العقيدة، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأمير عبدالقادر، الجزائر، 2008-2009، ص17.

(5) سُلاف القيقط، منهج الحافظ ابن عبدالبر في الحديث الحسن من خلال كتابه التَّمهيد، مذكرة ماجستير مخطوطة، جامعة الأمير عبدالقادر، الجزائر، 2000-2001، ص18.

د- أقوالُ العلماء فيه:

إنَّ عُلُوَّ كَعْبِ ابن عبدالبرّ في العلم، وإحاطتَه بعلومٍ عديدة، وتفوُّقَه فيها جعله قِبلةً للعديد من طلبة العلم والعلماء، وهذا للتَّعلُّم على يده وللاستِزادة مِن علمه، وهو الأمر الَّذي أثنى عليه الكثير من العلماء منهم:

تِلميذه الحميديّ(ت488هـ) الَّذي قال فيه:" إنَّه فقيهٌ حافظٌ مكثرٌ، عالمٌ بالقراءات والاختلاف في الفقه، وبعلوم الحديث والرِّجال، قديمُ السَّماع كثيرُ الشُّيُوخ ..."[1].

وقال عنه أبو الوليد الباجي(ت474هـ):" أبو عمرٍ أحفظُ أهل المغرب"[2].

وقال عنه الإمام الذَّهبي(ت748هـ):"كان إماماً، دّيِّناً، ثقةً، مُتقِناً، علاَّمةً، مُتبحِّراً، صاحب سُنَّةٍ وأتباعٍ، بلغ رتبة المجتهدين، ومَنْ نظر في مُصنَّفاته بَانَ له منزلتُه مِن سعة العلم، وقوَّة الفهم، وسيلان الذِّهن"[3].

هـ- وفاتُه رحمه الله:

اتَّفق المؤرِّخون على أنَّ ابن عبدالبر توفِّي يوم الجمعة آخرَ يومٍ من شهر ربيع الآخر، سنة ثلاثٍ وستِّين وأربعمائة للهجرة، الموافق لعام ألفٍ وسبعين للميلاد في مدينة شاطبة بالأندلس، وعُمره خمسةٌ وتسعُون عاماً وخمسة أيَّام، ولم يُخالف في تاريخ وفاته إلاَّ صاحبُ جذوة المقتبس؛ حيثّ ذكر أنَّه توفِّي سنة ستِّين وأربعمائة للهجرة، وتبِعه في ذلك صاحب بُغية الملتَمِس[4].

رابعاً: أهمِّية كتاب جامع بيان العلم وفضله: تكمن أهمِّيَّة هذا الكتاب في أنَّه:

1.قد اشتمل على بُحوثٍ قيِّمةٍ في جوانب التَّربية والتَّعليم، والآداب المتعلِّقة بكلٍّ من المعلِّم والمتعلِّم، وأهمِّ المراحل الَّتي يمرُّ بها طالب العلم، إضافةً إلى تبيان العلوم الأساسيَّة الَّتي يجب أن يُلمَّ بها مِن فَهمٍ لِكتاب الله تعالى، وسُنَّة

---

[1] أبو عبدالله محمد بن فُتُوح بن عبدالله الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق وتعليق: بشَّار عوَّاد معروف ومحمد بشَّار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008، ص344.

[2] أبو القاسم بن بشكوال، الصِّله، تحقيق وتعليق، بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، مج2، 2010، ص642.

[3] الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج18، ص157.

[4] سلاف القيقط، المرجع السابق، ص18.

نبيّه المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام، وعلوم اللُّغة والفقه، وحثِّ طالب العلم على الاطلاع على العلوم المكمِّلة لثقافته كالجُغرافيا، والطِّبِّ، وعلم الحساب، والتَّرجمة، وغير ذلك من سائر العلوم[1].

2.لقد رسم المؤلِّف من خلال كتابه منهجاً تعليمياً مُتكاملاً لمن أراد أن يكون مجتهداً في تحصيل العلم، فأرشده إلى التَّوسُّع في الحفظ للسُّنن، والإحاطةِ بأصول المذاهب الإسلاميَّة المختلفة، والأدلَّة الَّتي قامت عليها لِيَتَسنَّى له النَّظر فيها والتَّرجيح بينها[2].

3.لم يفُتِ المؤلِّف أنْ يرسم في طريق العلم والعلماء أدب المناظرة، وصفات العالم وآداب المتعلِّم، وأسلوبهمٍ في النَّقد والسُّؤال، ومعاملة العلماء لبعضهم البعض، وتوجيه كلام بعضهم في بعضٍ، فكان بهذا منهجاً تربوياً مُتكاملاً، لتكوين طالب العلم والعالم على السَّواء[3].

4.اعتمد ابنُ عبدالبر في جمعه لكتابه هذا على الاستدلال من القرءان الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة، وأقوال الصَّحابة الكرام، وأقوال الشُّعراء، ومأثورات الحُكماء، وفتاوى العلماء والفقهاء، وهذا بُغية أن يُبيِّن لأهل العلم في زمانه، وفي الأزمنة بعده أساليب التَّعليم والتَّعلُّم، وأهمُّ الأخلاقيات والأسس المتعلِّقة به مبيِّناً فضل العلم والتَّعليم والسَّعي في طلبه.

ومن استدلالاته على ذلك قولُ سابق البلوي[4] المعروف بالبربري[5]:

والعلمُ يجلُو العمى عن قلب صاحبِه ... كما يُجـــلِي سوادُ الظُّـــلمة القمَرُ
وليس ذُو العـــِلم بالتَّقوى كجاهلها ... ولا البصـــــير كأعمى مـــَالَهُ بصرُ

وأنْشَدَ أبوبكرٍ قاسمُ بن مروان الورَّاق في قصيدة مُطَوَّلَةٍ له[6]:

---

(1) ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزُّهيري، دار ابن الجوزي، ج1، ط1، 1994، ص21.

(2) ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص21.

(3) ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص21.

(4) سابق البلوي المعروف بالبربري، اشتهر بقول الشِّعر والإجادة فيه، له ديوان شعري يحتوي جميع ما قاله في الأدب والأخلاق والحكم اشتغل قاضياً على الرَّقَّة في خلافة عمر بن عبد العزيز. عبد الله كنُّون موسوعة رجال المغرب ج5 ،ص8.

(5) ابن عبدالبر، مختصر جامع بيان العلم وفضله، اختصره: أحمد بن عمر الحمصاني البيروني، تحقيق: حسين إسماعيل مروة، المكتبة التِّجارية، دار الخير، مكّة المكرَّمة، ط1، 1992، ص49.

(6) ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص55.

والعـــِلم زَينٌ وتشريفٌ لصـــاحبه أتَتْ إلينـــا بذا الأنبيـــاء والكتب
والعـــِلم يرفع أقـــواماً بلا حسَبٍ فكيف من كان ذا عـلمٍ له حَسَبُ
فاطـــلُب بعلمك وجه الله مُحتسِبا فما سوى العلم فهو اللَّهوُ واللَّعِبُ

وقال جميل صدقي الزَّهاوي متغنِّياً بفضل العلم[1]:

العـــــلم ثروة أُمَّـةٍ ويســـــــار والجـــــهل حرمـــانٌ لها وبـــَوَارُ
العـــــــلم قد دكَّ الجبال فهدَّها وأضـــاء جنح اللَّـــيل فهـــو بـوارُ
بالعـــــلم أدنى النَّاسُ شُقَّة أرضهم بالعـــلم غاصُوا في البحار وطارُوا
بالعـــــــلم طارت فأدْرَكَتِ المنى أيدٍ عن العـــِــرضِ الرَّفـيع قصارُ
العـــــلم ينمو في المدارس دوحُهُ حيناً وتقطـــــــف بعد ذاك ثمارُ
ما كان يُفـــلحُ في الجهـاد حياتَهُ شعبٌ عن كســـــلٍ له استمـرار
سيمُوت ربُّ العـلم عن مرضٍ به وتعـــــيشُ دهراً بعـــــدهُ الآثارُ
شتَّـــان بين الدُّرِّ تبسطُ ظُـــلْمةً والدَّارُ فيهـــا تســـطُعُ الأنـــوار
لايرفعُ الـوطنَ العـزيزَ سوى امرئ على الـــــوطن العـــزيز يغـــار

[1] ينظر جميل صدقي الزَّهاوي، ديوان الزَّهاوي، المطبعة العربية، مصر، (دط)، 1924، ص229.

الفصل الأوَّل:

– القواعد التَّربويَّة التَّعليمية في كتاب جامع بيان العلم وفضله

المبحث الأوَّل:

– القواعد التَّربويَّة التَّعليمية المتعلِّقة بأخلاقيات العالم

المبحث الثَّاني

– القواعد التَّربويَّة التّعليمية المتعلِّقة بآداب المُتعلِّمِ

الفصل الأوَّل: القواعد التَّربويّة التَّعليمية في كتاب جامع بيان العلم وفضله

لقد شرع الله تبارك وتعالى لعباده مكارم الأخلاق، ورغَّبهم في التَّحلِّي بِأَحْسن الآداب، كيف لا؟ وهي الَّتي تَجمع في مُجملها سُنن الحياة الرَّاقية، لِمَا تقُوم عليه من الآداب وشُعَبها الَّتي تسمُو بالنَّفس البشريَّة، لاسِيَما في باب طلب العلم والبحث عن المعرفة، ولقد اهتمَّ العلماءُ المسلمون بجانب الأخلاق والآداب عامَّةً، ولدى طلبة العلم خاصةً، إذْ لايَرِدُ ذِكرُ العلم بدونها–الآداب– فهُما صِنوان، ليس للمتعلِّم أنْ يستغنيَ عن واحدٍ منهما.

وسنُحاولُ في هذا الفصلِ الوقوفَ على أهمِّ القواعد التَّربويَّة، الَّتي أَوْرَدها الإمامُ ابنُ عبدالبر في كتابه(جامع بيان العلم وفضله).

المبحث الأوَّل: القواعد التَّربويّة التّعليمية المتعلّقة بأخلاقيات العالِم.

لقد دعا الإمامُ ابنُ عبدالبر العلماءَ إلى التَّحلِّي بجملةٍ من الآداب والقِيَم في تبليغهم لهذا العلم، وفي تعاملهم مع طُلابهم، وقد اسْتوحى هذه الآداب من خلال نصوص القُرءان الكريم، وسُنَّة سيِّد المرسلين عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن ثقافة المجتمع العربي، وهذه القيم نُجملها فيمايلي:

أولا: خُلُق التَّواضُع:

مفهوم التَّواضُع:

أ.التَّواضُع لغة: تواضع فلانٌ، تدلَّل وتخاشَعَ، وهو الإتِّفاقُ؛ تواضع القومُ على الأمر اتَّفقُوا عليه[1].

ب.التَّواضُع اصطلاحاً: هو تَرْكُ التَّرَؤُّس، وإظهارُ الخمولِ، وكراهيةُ التَّعظيم، والزِّيادة في الإكرامِ، وأنْ يتجنَّب الإنسانُ المباهاةَ بما فيه من الفضائِل، والمفاخرةُ بالجاهِ والمالِ، وأنْ يتحرَّز من الإعجابِ والكبر[2].

ويُعْتبر خُلقُ التَّواضُع من أهمِّ السِّمات الَّتي يجب أنْ يتخلَّق بها العلماءُ؛ ذلك أنَّه من أرقى مكارم الأخلاق وأرفعها، وحتَّى يكونَ العالم نِبراساً لغيره فإنَّ عليه أنْ يتحلَّى بهذا الوصفِ الكريمِ، وقد أشار ابنُ عبدالبر

---

(1) مَجمع اللُّغة العربية، معجم الوسيط، ص1040.

(2) الشَّبكة المعلوماتية، الدُّرر السَّنيَّة، موسوعة الأخلاق، معنى التَّواضع لغة واصطلاحاً، 2016/03/13م.

إلى هذا بقوله:" لايكون الرَّجل عالما، حتَّى يكونَ فيه ثلاثُ خِصالٍ: لايحقرُ مَن هو دونه في العلم، ولايحسِدُ من هو فوقه في العلم، ولايأخُذُ على علمه ثمناً"[1].

والمراد هنا أنَّه ليس للعالم أنْ يُهِين مَن هُم أقلُّ منه علماً، وليس له أنْ يترفَّع عليهم بهذا الفضل الَّذي اصطفاه اللهُ به، وأنْ لا يجعل نشره لهذا العلم مكسباً يجني منه المال، وإنَّما عليه أنْ يَخْفض جناح الذُّل لطلبةِ العلم بتواضُعٍ وتقوى، وأنْ لايتكلَّم فيما لايُحْسِن، قال إبراهيم بن أدْهم(ت162هـ) "ما مِنْ شيءٍ أشدُّ على الشَّيطان مِن عالِمٍ حليمٍ، إنْ تكلَّم تكلَّم بعلمٍ، وإنْ سكَت سكَت بعلمٍ، يقول الشَّيطانُ: انظُروا إليْه، كلامُهُ أشدُّ علَيَّ من سُكوته"[2].

ومِنْ تواضُعِ العالم أنْ يُجيبَ مَن سأله بعلمٍ، وليس عيباً أنْ يقول لا أعلم، أو سأنظُر فيما يقول العلماء، وقد ورد عن الخليل بن أحمد(ت170هـ) قولُه:" إنْ لم تُعلِّم النَّاس ثواباً، فعَلِّمهم لتدرُسَ بتعْليمهم علمَكَ، ولاتجزعْ بتفريعِ السُّؤال؛ فإنَّه ينبِّهك على مالم تعلم"[3]. ويُفهمُ من هذا القول أنَّه على العالم ألاَّ يجزَع من أسئلة المتعلِّمين مما لايُحسنُ الإجابةَ عليه. ولابأس عليه أن يقول: لا أعلم، وأنْ يقول اسألوا مَن هو أعلمُ منِّي، فإنَّ العلم رَحِمٌ بين أهله، وحتَّى يَعلمَ العالمُ قدر نفسه، ومالم يُحِطْ به من واسع عِلم الله تعالى.

كما أنَّه ينبغي للعالم أنْ يكون رحْب الصَّدر، ليِّن القول فهذه البشاشةُ في وجوههم قد تفتحُ على هذا العالم من المفاتيح مالم يكن يعلم، ولابأس أنْ يجلس إلى جانب تلامذته وأنْ يقرِّبهم من مجلسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« إنَّ النَّاس لكم تبَعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقَّهون في الدِّين، فإذا أتَوْكُم فاستوصوا بهم خيراً»[4].

---

[1] ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزُّهيري، ص526.

[2] ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص505.

[3] ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص381.

[4] التِّرمذي، سُنن التِّرمذي، تحقيق بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (دط)، 1988م، أبواب العلم، باب ماجاء في الإستيصاء بمن يطلب العلم، الحديث رقم2650، ج4، ص327.

ولقد كان البُوَيْطيّ[1] يُدني القرَّاء ويُقرِّبهم منه إذا طلبوا العلم، ويعرِّفهم فضل الشَّافعيّ(ت204هـ)، وفضلَ كتبِه، ويقول: كان الشَّافعيُّ يأمر بذلك، ويقول:" اِصبر للغرباء وغيرهم من التَّلاميذ"[2].

فكلُّ هذه الخصال وغيرها من الآداب، يحسُن للعالم أنْ يتَّصف بها، لاسيَما إذا عَرَف قدرَهُ وشَرَفَ ما وعاهُ عقلُهُ من العلم والحكمة. ولاشكَّ أنَّ مَن جَمع الله له بين هذا الخُلُق الرَّفيع، وبين هذا العلم العظيم قد حاز أشرف المراتب وأسماها، وحُقَّ له أنْ يسعد دنياً وأخرى. فقد ثبت عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال:« إنَّ التَّواضع لايَزِيدُ العبد إلاَّ رِفعةً، فتواضعُوا لله يرفعكم الله»[3].

ثانياً: تَركُ المِرَاءِ

مفهوم المراء:

أ.المِراءُ لغة: هو مخالفة الغير والتَّلوِّي عليه، أو عدم الوضوح معه، تقولُ: مارى فُلانٌ فُلاناً؛ أي خالَفهُ وتلوَّى عليه، أو لم يكن واضحاً معه. وهو المناظرةُ والجدلُ، تقول: مارى فلانٌ فُلاناً؛ أي ناظرهُ وجادله[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ الكهف: ٢٢، أي في أصحاب الكهف.

ب.المِراءُ اصطلاحاً: عرَّفه أبو حامد الغزاليّ(ت 505هـ) بقوله: هو كلُّ اعتراضٍ على كلام الغير بإظهار خللٍ فيه، إمَّا في اللَّفظ، وإمَّا في المعنى، وإمَّا في قصد المتكلِّم[5].

ويحْسنُ بالعالم أن يتنزَّه عن الثَّرثرةِ والجدلِ لاسيَما في ما لايُجيدُ، وألاَّ يجادل إلاَّ أهل العلم والحجَّة، وقد "قيل مرَّةً لإسماعيل بن إسحاق[6]: لو ألَّفت كتاباً في آداب القُضاة. فقال: وهل للقاضي أدبٌ غيرُ آدابِ الإسلام؟، ثمَّ قال: إذا قضى القاضي بالحقِّ فليقعُد في مجلسه كيف شاء، ويمُدَّ رِجليه إنْ شاء، وقال: الواجبُ على

---

[1] يوسف بن يحي المصري البُويطيّ: أبو يعقوب، صحب الإمام الشَّافعيّ وتخرّج به وفاق الأقران، مات سنة231هـ. تذكرة السَّامع والمتكلِّم، لابن جُماعة، ص84، نقلاً عن طبقات الشَّافعيَّة الكبرى، للسُّبكي، ج2، 162.

[2] ابن جُماعة، تذكرة السَّامع والمتكلِّم، اعتناء: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الاسلامية، لبنان، ط3، 2012، ص84.

[3] ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزُّهيري، ص562.

[4] السَّيد محمد نوح، آفات على الطَّريق، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1987، ج4، ص2.

[5] الغزالي، إحياء علوم الدِّين، ج3، ص114.

[6] هو أبو إسحاق، إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن محدث البصرة حماد بن زيد بن درهم الأزدي، المالكي، قاضي بغداد، وصاحب التصانيف، توفي سنة 282هـ. الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج13، ص340، 342.

العالم ألاَّ يُناظر جاهلاً، ولا لجُوجاً؛ فإنَّه يجعل المناظرةَ ذريعةً إلى التَّعلُّم بغير شكرٍ"[1]. وقال الإمامُ الشَّافعيّ(ت204هـ):" من إذلال العلم أنْ تُناظِر كلَّ مَن ناظرك، وتُقَاوِل كلَّ مَن قاوَلَك"[2]. وهو عينُ ما تحدَّثَ عنهُ أبوبكر الأجُري[3] رحمه الله حين قال:" اِعلموا أنَّ مِن صفة العالِمِ العاقلِ؛ الَّذي فقَّهَهُ الله في الِّدين ونَفَعَه بالعلم، ألاَّ يُجادلَ، ولايُماريَ، ولايَغلِبَ بالعلم إلاَّ مَن يَستحقُّ أنْ يَغلِبَه بالعلم الشَّافي، وذلك يُحتاج في وقتٍ من الأوقات إلى مُناظرة أحدٍ من أهلِ الزَّيغ، لِيَدفعَ بحقِّه باطِلَ مَنْ خالفَ الحقَّ وخرج عن جماعةِ المسلمين، فتكُنْ غَلَبَتُهُ لِأهلِ الزَّيغ تَعود بركةً على المسلمين، على جهة الاضطرار إلى المناظرةِ لاعلى الاختيار؛ لأنَّ صفة العالِمِ العاقلِ ألاَّ يُجالِسَ أهل الأهواءِ ولايُجادلَهُم"[4].

وهذا لايعني أنَّ كلَّ مُجادلةٍ مذمومةٌ أو مكروهةٌ، فهُناك مجادلةٌ محمودةٌ ومُرغَّبٌ فيها إذا اتَّصَّفت بِطابع" إبْداء المِدارك الَّتي هي مُستند الأقوالِ والأعمالِ، وأمَّا إظْهارُ غير ذلك فَنَوعٌ من النِّفاق في العلم والعمل"[5].

ثالثا: التَّرفُّع عن العُجْب والغُرور:

1.مفهوم العُجب:

أ.العُجب لغة: عجِبَ منه عجَباً وعُجْباً؛ بمعنى السُّرور، أعْجَب فُلانٌ الشَّيءَ: عجِب منه وسُرَّ، وأُعجِب فلانٌ بنفسه؛ ترفَّع واسْتكبر، وأَعْجَبَ الشَّيءَ فلانٌ؛ اسْتَهواهُ واسْتَمالهُ، والعُجْبُ: هو الكِبْر والزُّهُوّ[6].

ب.العُجب اِصطلاحاً: هو الإحساسُ بالتَّميُّز، والافتخار بالنَّفس، والفرحُ بأحوالها، وبما يصدُرُ عنها من أقوالٍ وأفعالٍ محمودةٍ أو مذمومة[7].

---

(1) ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص138.

(2) حمد بن إبراهيم، النُّبَذُ في آداب طلب العلم، مكتبة ابن القيم، الكويت، ط4، 2012، ص137.

(3) هو الإمام المحدِّث، شيخُ الحرم الشَّريف، صاحب التَّواليف الكثيرة، منها كتاب آداب العلماء، توفي سنة360هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج16، ص135،134.

(4) حمد بن إبراهيم، النُّبَذُ في آداب طلب العلم، ص137.

(5)حمد بن إبراهيم، المرجع نفسُه، ص137.

(6) مَجمع اللُّغة العربية، معجم الوسيط، ص584.

(7) الشَّبكة المعلوماتية، مُلتقى الخُطباء، تعريف العُجْب لغةً واصطلاحاً، 2016/03/13.

2.مفهوم الغُرور:

أ.الغُرُور لغة: هو الخِداع سواءً أكان للنَّفس أو للغير، أو للنَّفسِ وللغير معاً، تقـول: غرَّهُ، يغُرُّهُ، غُرُوراً؛ أي خَدَعه، وغرَّ نفسَه يغُرُّها غُرُوراً؛ تعني خَدَعها، ومنه قوله تعالى:﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ الإسراء: ٦٤.

ب.الغُرُور اصطلاحاً: هو إعجابُ العاملِ بنفسه إعْجاباً يَصِلُ إلى حدِّ احْتقار، أو اسْتصغار كلِّ ما يصدُرُ عن الآخرين بِجَنْب ما يصدُرُ عنه، ولكنْ دون النَّيل من ذواتِهم أو التَّرفُّعُ على أشخاصهم.

ولاشكَّ أنَّ مَن كان بهذه المثابة فهو مخدوعٌ، وتَبَعاً لذلك فإنَّنا يُمكِنُ أنْ نفهم مدى التَّلاقِي بين المعنى الاصطلاحيّ، والمعنى اللُّغويّ[1].

وليس بعد هذا من مصيبةٍ، فلا ينفعُ حينها هذا العالم نفسه ولا الناس ممَّن حوله، بل قد يُهلك نفسَه من حيث لايَدْري؛ إنَّه خُلق العُجب الذَّميم، الَّذي يُفسد على المرء دينَه ودنياهُ، فلا تجدُهُ إلاَّ مُجادلاً لغيره مُعجباً بنفسه، وقد ورد عن مسروق[2] رحمه الله تعالى قولُه:"كفى المرءَ علماً أنْ يخش اللهَ، وكفى المرءَ جهلاً أنْ يُعجب بعلمه"[3]. وهذه من أعمال القُلوب. ومن جميل قول الإمام علي كرم الله وجهه: " الإعجابُ آفة الألباب"[4].

ويُبيِّن هذا المعنى ما أشار إليه عليُّ بن ثابت[5] حين قال[6]:

المـــــــالُ آفتُهُ التَّبـــذيرُ والنَّهَب والعـــلمُ آفتُهُ الإعجابُ والغضبُ

والعالم يعلِّمُ النَّاس قد يستحوذ عليه الشَّيطان ونفسُهُ الأمَّارةُ بالسَّوء، فيُعجَب بنفسِه، ويستحوذُ الرِّياءُ على سُويداء قلبه، وهذا الَّذي ينافي حقيقة الإيمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنَّ أوَّل النَّاس يُقضى يوم القيامة عليه، رجلٌ استُشهد فأُتِي به فعرَّفه نعمَهُ فعرَفها، قال: فما عمِلتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى استُشهِدتُ، قال: كَذَبت، ولكنَّك قاتلتَ ليُقال لك جرِيءٌ، فقد قيل، ثمَّ

---

[1] السَّيد محمد نوح، آفات على الطَّريق، ج1، ص36.

[2] مَسروق بن الأجدع بن مالك بن أميَّة بن عبد الله بن مرّ بن سلمان بن معمر، وعِدَادُهُ في كبار التَّابعين وفي المخضرمين الَّذين أسلموا في حياة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم، توفي سنة63هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج4، ص64.

[3] ابنُ عبدالبر، مُختصر جامع بيان العلم وفضله، ص134.

[4] ابنُ عبدالبر، المصدر نفسُه، ص134.

[5] هو أبوبكر أحمد بنُ علي بن ثابت بنُ أحمد بنُ مهدي البغدادي، صاحب التَّصانيف، وخاتمة الحفَّاظ، ولد سنة392هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج18، ص270،271.

[6] ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص134.

أُمر به فسُحِب على وجهه حتَّى أُلقي في النَّار، ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمهُ، وقرأَ القرءان، فأُتي به فعرَّفه نِعمَه، فعرَفَها قال: فما عمِلت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرءان. قال: كَذَبْت، ولكنَّك تعلَّمْت ليُقال عالمٌ، وقرأت القرءان ليُقال قارئٌ فقد قيل، ثمَّ أُمر به فسُحب على وجهه حتَّى أُلقي في النَّار...»[1].

والعالم اللَّبيبُ مَن يُوفِّق بين علمه وخَشية الله تعالى، ولايتأَتَّى له ذلك إلاَّ بالصِّدق والإخلاص، ففي مُسند الدَّارمي(ت280هـ) عن عليّ بن أبي طالبٍ كرَّم الله وجهه قال:« يا حملةَ العلم اعملوا به؛ فإنما العلم مَن عمِل بما علِم، ووافَق علمَه عملُه، وسيكونُ أقوامٌ يحملون العلم. لايُجاوزُ تراقيَهم، يُخالف عملهُم علمهُم، وتُخالف سريرتهُم علانيتهُم، يجلسون حِلَقاً يُباهي بعضُهم بعضاً، حتَّى إنَّ الرَّجل لَيغضب على جليسه أنْ يجلس إلى غيره ويَدَعَه، أُولئك لاتصعَد أعمالُهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى»[2].

من خلال هذه النُّصوص وغيرها يتبيَّنُ أنَّه على العالم الصَّادق، أن يتحاشى هذه الصِّفات الَّتي تجعله يتكبَّر على غيره من النَّاس، ويتفاخرُ بنفسه، بل ويحسُدُ أقرانَه من العلماء، ويتباهى عنْ مَنْ هُم دونَهُ في العلم، وقد ثبت عن كعب الأحبار[3] قولُه:" إنَّ للعلم طُغياناً كطُغيان المال"[4]. ودواءُ هذا كلِّه خوفُ الله وتقواهُ، وقد مدح الله عباده المتَّقين الصَّادقين من أهل العلم والخَشية فقال:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ فاطر: ٢٨. فعلى العالم أنْ يصدُقَ النِّية وأنْ يعمل بما يعلم، فإنَّه جماعُ ذلك كلِّه مما يوفِّقهُ ويبلِّغُه مرتبة الإحسان.

ثالثاً: العمل بالعلم ونشره:

إنَّ مِن توفيق الله للعالم الصَّادق أن يجمع له بين القولِ والفعلِ، ثمَّ إنَّ العمل بهذا العلم سبيلٌ قويمٌ لنشره؛ كيف لا؟ والنَّاس تَبعٌ لأئِمَّتهم وفُقهائهم، يتعلَّمون منهم الفرائض والسُّنن وشرائع الدِّين، إذْ لايليقُ بالمسلم فضلاً عن المتصدِّر للفُتيا وتعليم النَّاس أن يكون قولُه خلافٌ لفعله، وهذا الَّذي عاتَب اللهُ تعالى به بعضاً من خلقه

---

[1] مسلم بن الحجّاج، المسند الصَّحيح لمختصر السُّنن، تحقيق: محمد الفريابي أبوقُتيبة، دار طيبة، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرِّياء والسُّمعة استحقَّ النَّار، الحديث رقم 1905، ج2، ص919.

[2] النَّووي، آداب العالم والمتعلِّم، مكتبة الصَّحابة، مصر، ط1، 1987، ص21.

[3] هو كعب بن مانع اليماني، العلاَّمة الحبر، حدَّث عن أبي هريرة، ومعاوية، وابن عبَّاس، توفي بحمص. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج3، ص921.

[4] محمد سعيد رسلان، آفات العلم، دار أضواء السَّلف، مصر، طبعة جديدة ومنقَّحة، (دت)، ص78.

المؤمنين فقال وهو أصدقُ القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ الصف: ٢-٣.

والعلم يربُوا ويزدادُ بالعملِ لا بالقولِ وحدهُ، وترسُخ قدمُ العالم كلَّما كان قولُهُ موافقٌ لفِعاله، فيثبُت هذا العلم بعد الفهم في ذهنه ويستَوْعبَه عقلُه، فعن محمد بن النَّضر الحارثي[1] قال:" أوَّل العلم الاستماع، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: الحفظ، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: ثمَّ العمل، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: النَّشر"[2].

والمعنى المستفاد من هذا القول أنَّه لابدَّ للعالم أن يجمع بين الحفظِ، والعملِ، والتبليغ، وإلاَّ فإنَّ خاصِّية العلمية مُنتفاه عنه وعن أمثاله، وقد ثبت عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال:« بلِّغوا عنِّي ولو ءاية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولاحرج، ومَن كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدهُ من النَّار»[3]، وهذا الحديث كما قال بعضُ أهل العلم تضمَّن تكليفاً، وتشريفاً، وتخفيفاً، فبلِّغوا (تكليفٌ)، وعنِّي (تَشريفٌ)، ولو ءايه (تخفيفْ).

فلابُدَّ من البلاغ عن الله ورسوله، وقد ورد الوعيدُ الشَّديدُ في كتم العلم والبُخل به عن النَّاس، فقد ثبت عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال:« مَن سُئِلَ عن علم فكتَمه ألجَمَهُ اللهُ بلِجامٍ من نار يوم القيامة »[4].

نكالاً وعقوبةً من الله على هذا الصَّنيع، بينما جعل الله تعالى للعالم أو الرَّجل الَّذي ينشُر علمه، ويبلِّغُه لغيره من النَّاس، جعل له أجراً عظيماً ومنحةً مِن عنده فقد ثبت عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال:« إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلاَّ من ثلاثٍ: صدقةٌ جاريةٌ، أو علمٌ يُنتفع به، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له»[5].

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّه قال:" مَن علِم وعمِل وعلَّم، دُوعي ملكوتُ السماواتِ عظيماً"[6]. وهذا من كمالات النَّفس البشريَّة، إذ يجتمع كلُّ هذا الفضل في شخص العالم الصَّادق. ولقد مدح الله تعالى عباده العلماء المجتهدين من أهل التَّحقيق فقال وهو أصدق القائلين:﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ آل عمران: ٧.

---

[1] هو أبو عبدالرَّحمن، الحارثي الكوفي، روى عن الأوزاعي، وغيره. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج8، ص176.

[2] ابنُ عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزُّهيري، ص476.

[3] التِّرمذي، سُنن التِّرمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، الحديث رقم2669، ج4، ص337.

[4] ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص5.

[5] محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المطبعة السَّلفية، مصر، 1375م، ص21.

[6] ابنُ عبد البر، المصدر السَّابق، ص497.

قال ابنُ وهب[1]:" قال مالك(ت179هـ): الرّاسخُ: العالمُ العاملُ؛ فإذا لم يعمل فهو الَّذي يقال فيه: نعوذُ بالله من علمٍ لاينفع!"[2]. إذن فالعلم والعمل به صنوان، ليس لأحدهما وجودٌ دون الآخر. قال أبو زكريا بن النَّحَّاس الدِّمشقي[3]:" فالعالم إذا خالف عملُهُ علمُه، وكذَّب فعلُه قولَه، كان ممقوتاً في الأرض والسَّماء، مضلَّةٌ لمن رام به الإقتداء، وإذا أمر بغير ما يعمل مُجَّت الأسماعُ لكلامه، وقلَّت في الأعيُن مهابتُه، وزالت من القلوب مكانتُه، كما قال مالك بن دينار(ت127هـ): إنَّ العالم إذا لم يعمل بعلمه تَزِلُّ موعظتُه عن القلوب، كما يَزِلُّ القطرُ من الصَّف"[4].

ولقد مدح الله تعالى المعـــلِّم في غير موضع من كتابه الحكيم، قال ابنُ مسعود رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ النَّحل: ١٢٠، قال: "الأُمَّة: المعلِّم للخير، والقانتُ المطيع". وبعدُ فإنَّ نشر العلم والعمل به فرضٌ وواجبٌ على كلِّ متعلِّمٍ؛ ذلك أنَّه به يعمُّ النَّفع والخير، وتتحقَّق الفائدة وينتفي الجهلُ، والأعظم من ذلك أنْ يفهم النَّاسُ أُمور دينهم ودُنياهم كما أراد الشَّارعُ الحكيمُ.

هذا مُجمل ما وقفنا عليه من الإشارات التَّربويَّة الَّتي رأى ابن عبدالبر أن عَّلى العالم والمتعلم أنْ يتخلَّقا بها في طريق العلم تعلُّماً أو تعليماً.

---

[1] هو شيخ الإسلام، أبو محمد الفهري، ولد سنة125هـ، من رواة الحديث، مفتي أهل مصر، توفي سنة197هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج9، ص224، 230.

[2] حمد إبراهيم العثمان، النُّبد في آداب طالب العلم، ص39.

[3] هو مُحي الدِّين أبو زكريا، المشهور بابن النَّحَّاس، من علماء القرن الثامن الهجري، توفي في مطلع القرن التَّاسع الهجريّ، نقلا عن مشارع الأشواق إلى مصارع العُشَّاق، لابن النَّحَّاس، ص7.

[4] حمد إبراهيم العثمان، المرجع السَّابق، ص42.

المبحث الثَّاني: القواعد التَّربوية التّعليمية المتعلِّقة بآداب المتعلِّم:

بعد استعراضنا لأهمَّ القواعد التَّربويَّة المتعلِّقة بالعالم، والَّتي أوردها ابنُ عبدالبر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، وسنعرض فيما سيأتي إلى أهمِّ القواعد التَّربوية المتعلِّقة بالمتعلِّم، حتَّى تتَّضح الصُّورة أكثر، ذلك أنَّ العملية التَّعليميَّة في أصلها قائمةٌ على هذين الطَّرفين (المعلِّم والمتعلِّم) إضافةً إلى المادَّة التَّعليميَّة، فقد أورد المصنِّف جملة من القواعد يمكن إجمالها في الآتي:

أوَّلاً: الصَّبر على طلب العلم:

هو خصلة من أهم خصال طالب العلم الحقيقي، فالصَّبر على طلب العلم أمرٌ لابد منه لمن أراد العلم بحق، وخلافه السَّأم والاستعجال، وممَّا لاشكَّ فيه أنَّ هذا ممَّا يُفسد على المتعلِّم أُموره، خاصَّةً وهو بين يَدي شيخه ومُؤدِّبه، وقد وردت عديدُ النُّصوص والآثار في فضيلة الصَّبر وضرورةُ الاستعانة به في الأمور كلِّها، بما في ذلك طلبُ العلم، قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ البقرة: ٤٥. وهذا أمرٌ صريحٌ من الله تبارك وتعالى بالصَّبر؛ الَّذي هو نِصف الإيمان، وقد أورد المؤلِّف جملةً مِن الشَّواهد على ذلك، فعن هشام بنُ عُبيدالله(ت221هـ)، عن عبدالله بنُ يحي بنُ أبي كثيرٍ، عن أبيه قال: " مِيراثُ العلم خيرٌ من ميراث الذَّهب والفضَّة، والنَّفسُ الصَّالحةُ خيرٌ من اللُّؤلُؤ، ولايُستطاعُ العلم بِراحة الجسد". وأنْشَد خَلَفُ بنُ القاسم[1] لابن المبارك(ت181هـ) أبياتاً منها:

وآخرُ العـــــــــــلم لذيذٌ طُعمهُ وبَدِيءُ الذَّوق منه كالصِّـــــــبر

وقد قيل قديماً: " مَن لم يحتمل ذُلَّ العلم ساعةً، بقي في ذُلِّ الجهل أبداً". ومعنى هذا الكلام أنَّ العلم لا يُدركُ براحة البدن، وإنَّما لابدَّ مِن الصَّبر وسهَرُ اللَّيالي، والمداومةُ على البُكور لِمُدارسة الكتب وحتَّى حِفظها، وأنْ يتذوَّق مرارتَه الَّتي لاتَدوم، بل إنَّها ستصِيرُ فيما بعدُ سعادةً وراحةً ومُتعة. ولقد سُئل الشَّعبي[2] رحمه الله مِن أينَ لك هذا العلم كُلُّه؟ قال:" ينبغي الاعتماد والسَّير في البلاد، وصبرٌ كصبر الجِمال، وبُكورٌ كبُكُورِ الغُراب"[3].

---

[1] أبو القاسم بن الدَّبَّاغ الأندلسي القرطبي، ولد سنة 325هـ، روى عنه ابنُ عبدالبر، توفي سنة 393هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج17، ص114.

[2] هو عامر بنُ شراحيل بنُ عبد بنُ ذي كبار، قيل ولد سنة21هـ، وقيل سنة28هـ، حدَّث عن سعد بنُ أبي وقَّاص، وأبي موسى الأشعري. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج4، ص295،296.

[3] محمد سعيد رسلان، مراتب طلب العلم، دار أضواء السَّلف، مصر، (دط)، (دت)، ص42.

قال الإمام النَّووي(ت676هـ) رحمه الله:" مَن لم يصبر على ذُلِّ العلم، بقي عمرَهُ في عَماية الجهلِ، ومَن صبر عليه؛ أي: على العلم ءال أمرُهُ إلى عزِّ الآخرة والدُّنيا، ومنه الأثرُ المشهورُ عن ابن عبَّاس –رضي الله عنهما–: ذَلَلْتُ طالباً فعزَزْتُ مطلوباً"[1].

فالصَّبر على طلب العلم، وتكبُّد المشاقَّ فيه يُولِّد الهمَّة ويُقوِّي العزيمة، ويَزيدُ في الحِرص على التَّحصيل، كما أنَّه يجعل الإنسان يشعر بعِظمِ جهله لكثيرٍ من الأشياء، ما يجعله يبحثُ ويسعى جاهداً لمعرفتها، والإحاطةِ بها، فهذا ابنُ عبَّاسٍ– رضي الله عنهما– قال: " لماَّ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، قلتُ لرجُلٍ مِن الأنصار: هلُمَّ فلنسأل أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنَّهم اليوم كثيرٌ، فقال: واعجباً لك يابن عبَّاس! أترى النَّاس يفتقرون إليك، وفي النَّاس أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومَن فيهم؟، قال: فتركتُ ذاك، وأقبلتُ أسألُ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان يبلُغُني الحديثُ عن الرَّجلِ فآتيَ بابَهُ وهو قائلٌ، فأتوسَّدُ رِدائِي على بابه، يسفِي الرِّيحُ علَيَّ من التُّراب فيخرُجَ فيراني فيقولُ: ياابن عَمِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك؟ هلاَّ أرسلتَ إلَيَّ فآتِيك، فأقولُ: لا، أنا أحقُّ أنْ آتيك، فأسألُهُ عن الحديث، فعاش هذا الرَّجلُ الأنصاريُّ حتَّى رَءاني وقد اِجتمع النَّاسُ حولي يسألُونني، فيقُولُ: هذا الفتى كان أعقلَ مِنِّي"[2].

لذلك وجب على طالب العلم أو المتعلِّم أنْ يصبرَ ويُصابرَ ويستجِيبَ لِأمر الله تعالى الَّذي أمر فيه عباده بالصَّبر قائلا:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠ ﴾ آل عمران: ٢٠٠.

وسيجني بفضل الله، وحُسن بركة دعواته الصَّادقة بين يديه ما كان يسعى إليه، والله لايضَيّع من توكل عليه.

ثانيا: السُّؤال والبحث وتركُ الحياء:

يُعتبر خُلقُ الحياء من الصِّفات المحمودةِ الحميدة، إلاَّ في طلب العلم وسُؤال العلماء، أو غيرهم مِن أهل المعرفة، وقد ورد في بعض الآثار: اثنان لايتعلَّمان؛ المستحيي والمستكبر؛ والمقصودُ أنْ المستحيي يرغَبُ عَن سُؤال العلماء، وهناك فرقٌ بين الحياء والحِشمة، ومن الحصافة أن يتحاشا المتعلِّم هذه الخصلة مااستطاع إلى ذلك سبيلاً؛ ذلك أنها تُورثُه الجهلَ، وهو يلازم العلماء عليه أن يطلق لسانه في مُسألتهم، واسْتخراج المعرفة منهم، لكنْ قد يكون لهذا الحياء أسبابٌ اجتماعيَّةٌ، أونفسيَّةٌ، أو غير ذلك مِن الأسباب، فقد يخشى المتعلِّمُ سؤال العالم أمام أقرأنه، فلا يزيدُهُ ذلك إلاَّ جهلاً مع جهله، وقد أورد المصنِّفُ شاهدا على ذلك حيث قال:" عن محمد بن

---

[1] محمد سعيد رسلان، المرجع السَّابق، ص40.

[2] محمد اسماعيل المقدَّم، علو الهِمَّة، دار الإيمان، مصر، (دط)، 1995م، ص145.

معنٍ(ت1062هـ) قال: قال لي عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز(147هـ): ماشيءٌ إلاَّ وقد علِمتُ منه، إلاَّ أشياءَ كنتُ أستحيي أنْ أسألَ عنها، فكبِرتُ وفيَّ جهالتُها''[1].

وعن عِكرمة[2] قال: قال لي علي رضي الله عنه: '' خمسٌ اِحفظوهنَّ، لو ركبتم الإبل لأنضيتُمُوهُنَّ من قبل أن تُصيبوهُنَّ: لايخاف عبدٌ إلاَّ ذنبه، ولايرجُو إلاَّ ربَّه، ولايستحيي جاهلٌ أن يسأل، ولايستحيي عالمٌ إنْ لم يعلم أنْ يقول: الله أعلم،....وقال الحسن رضي الله عنه: من اِستتر على طلب العلم بالحياء، لبِس الجهل سِرْبالَه، فاقطعُوا سرابيل الجهل عنكم بدفع الحياء في العلم؛ فإنَّه مَن رقَّ وجهُهُ رقَّ علمُهُ''[3]. «وعن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: نِعم النِّساءُ نساءُ الأنصار لم يكُن يمنعُهُنَّ الحياءُ أن يتفقَّهن في الدِّين»[4]. وقال مجاهد[5] رحمه الله:'' لايتعلَّم العلم مستحيٍ ولامستكبر''[6].

وكان يقال:'' إذا علَّمتَ عاقلاً عِلماً حمدك، وإنْ علَّمتَ الجاهل ذمَّك ومَقَتَك، ومايَعلمُ مُستحٍ، ولامتكبِّرٌ قطُّ''[7]. وقال ابنُ المفلِح(ت763هـ) في حديثٍ له عن عواقب الاستحياء:'' ومن ذلك أنَّ الإنسانَ قد يجهلُ بعض العلم فيستحيي من السُّؤال والطَّلب لِكِبر سِنِّه، ولِئلاَّ يُرى بعين الجهل، فيَلقى من الفضيحة إنْ سُئِل عن ذلك أضعافَ ماآثر مِن الحياء''[8].

يتَّضح من خلال هذه الأقوال وغيرها أنَّ الحياء قد لايكون في موضعه، خاصة إذا حال بين المرء وبين معرفة أمور دينه أو دنياه، فيكبُرَ ويكبُرُ معه الجهلُ فلا نفسَه يفيدُ ولا الناس ممن يسألونه، فتكونُ فضيحة عدم إجابته أعظم وأشدُّ مِن فضيحة حيائه مِن سؤال العلماء.

---

(1) ابنُ عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص382.

(2) هو أبو عبدالله مولى ابنِ عبَّاس، أحدُ التَّابعين والمفسِّرين المكثرين، روى عن ابنِ عبَّاس، وأبي هريرة، توفي سنة 105هـ. علي الحسيني الملياني، نفحات الزّهار في خلاصة عباقرة الأنوار، ج12، ص238،239.

(3) ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص383.

(4) ابنُ ماجة القزويني، سُنن ابنِ ماجه، بيت الأفكار الدَّولية، كتاب الطَّهارة وسننها، باب الحائض كيف تغتسل، الحديث رقم642، ص79.

(5) هو عبدالله بن السَّائب القارئ، روى عن ابنِ عبَّاس، وتلا عليه ابنُ كثير الدَّاري، وأبوعمر بن العلاء، قيل توفي سنة104هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج4، ص450، 456.

(6) حمد بنُ إبراهيم، النُّبد في طلب العلم، ص128.

(7) ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص535.

(8) حمد بنُ إبراهيم، المرجع السابق، ص129.

ثالثاً: مُلازمةُ العُلماء:

إنّ من أهمَّ الأعمال التي تُمكِّن المتعلِّم من فهم وحِفظ العلوم، وتنمية قدراته الفكريَّة مُلازمتُه للعُلَماء، وحِلقِ الذِّكر والتَّعليم وعدم الغفلة عنها، وعلى طالب العالم الفطن اللَّبيب ألاَّ يكتفيَ بقراءة الكُتب والدَّواوين، والمؤلَّفات فقط. بل إنَّ عليه أنْ يُزاحم العلماءَ بركبتيه مااستطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يستعين بهم في فهم المسائل الَّتي لايتيسَّرُ عليه فهمُها، ثمَّ إنَّ مُجالستهُم قد تزيدُ رغبتَه وحِرصَه على الطَّلب، ومن أفضلُ ما قيل في ذلك قول الشاعر[1]:

عليك بأهل العـــِلم فارْغبْ إليْهم ... يُفيدوك عـــِلماً كي تكون عليماً

ويحسِبُ كلُّ النَّـــــاس أنَّك مُفْهم ... إذا كُنت في أهـــــلِ الرَّشاد مُقِيماً

فكُـــلُّ قرين بالمقـــــــارن مقتد ... وقد قـــال هذا القـــائلون قديماً

وقال قتادة[2]:" لو كان أحدٌ يكتفي من العلم بشيءٍ لاكتفى موسى عليه السَّلام، ولكنَّه قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ الكهف: ٦٦"[3]. وعن مالك(ت179هـ) أنَّه بلغه أنَّ لقمان الحكيم قال لابنه:" يابُنيَّ جالِسِ العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإنَّ الله يُحي القُلُوب الميِّتة بالحِكمة كما يُحي الأرض الميِّتة بوابل السَّماء"[4].

وهذه دعوة صادقة من هذا الرَّجُل الصَّالح، فيها وصيةٌ جامعةٌ تصلح للمتعلِّمين في كلِّ زمان ومكان، ومع أيِّ معلِّم، فهؤلاء قد علِموا بحقِّ قدر هذا العلم، وشرف حملته من أهل المعرفة والخَشية. فهذا صاحب كتاب العلم ينصح الطُّلاب بأن يلتزموا بشيخٍ واحدٍ في طلب العلم، وألاَّ يُكثروا من المشايخ لاختلاف أساليبهم ومذاهِبهم التَّعليميَّة، مما يوقعهم في اللُّبس، فيقول:" وأنا أنصح طالب العلم ألاَّ يتلقَّف من كُلِّ شيخ؛ لأنَّ العُلماء يختلِفون في طريقة استدلالهم من الكتاب والسُّنَّة، ويختلفون في آرائهم أيضا، فأنت تجعلُ لك عالماً تتلقَّى علمه في الفقه أو البلاغة وهكذا؛ أي تتلقَّى العلم في فنٍّ واحدٍ من شيخ واحدٍ، وإذا كان الشَّيخ عنده أكثرُ من فنٍّ فتلتزم معه؛

---

[1] ابنُ عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص387.

[2] هو قتادة بن دعامة بن عكاية، قدوة المفسِّرين والمحدِّثين، روى عن أنس بنِ مالك، وسعيدُ بن المسيِّب، والحسن البصري، توفي سنة118هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج5، ص269.

[3] ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص418.

[4] ابنُ عبدالبر، المصدر نفسُه، ص438.

لأنَّك إذا تلقَّيت علم الفقه مثلاً من هذا وهذا، واختلفُوا في رأيهم فماذا يكون من موقفك وأنت طالبٌ؟ يكونُ موقفُك الحيرةُ والشَّكُّ، لكنَّ التزامك بعالِمٍ في فنٍّ معيَّنٍ فهذا يُؤَدِّي إلى راحتِك''[1].

إنَّ من رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن ألقى في قلوب سلفنا الصَّالح الشَّغفُ بالعلم، والحرصُ على مجالِسِه ليحفظ بهم دينه وشريعته، وحتى يكونوا أُسوة لمن بعدهم، فمن ثمَّ تبوَّءُوا مناصب الإمامةِ في الدِّين لما كانوا يزدحمون على مجالس العلم، قال جعفر بن درسَتَوَيْه(ت347هـ):''كُنَّا نأخُذُ المجلس في مجلس علي بن المدِينيّ(ت178هـ) وقت العصر اليومَ لمجلس غدٍ، فنقعُدُ طُول اللَّيل مخافة أن لانلحَق من الغد موضِعاً نسمع فيه، ورأيت شيخاً في المجلس يبولُ في طَيْلَسَانه، ويُدرجُ الطَّيْلَسَانُ حتَّى فرَغَ مخافة أن يُؤْخذَ مكانُهُ إن قام للتَّبوُّل''[2].

هذا حالُ سلف هذه الأمَّةِ الأبرار ممن أخذوا بحظٍّ وافرٍ كما وصَفَهم سيِّدُ المرسلين عليه الصَّلاة والسَّلام حين قال: «...وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ، وإِنَّ ٱلْأَنبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُواْ دِيْنَارًا وَلَادِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُواْ ٱلْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[3]، وهؤُلاء العلماء من أُولئك الأنبياء، علماً وفقهاً وأدباً، فكيف بِحالِنا اليوم ومجالِسِ الذِّكر والوعْظ خاويةٌ على عُروشها، وإنْ حضرتِ الأجسامُ غابت العُقول والأفئدة، واللهُ المستعان، فهؤلاء لم يجدُوا متَّسعاً لجلُوسهم بين أيْدي عُلمائِهم، بل ولا سبيلاً لِسُؤالهم، ونحن اليوم نُعرِضُ عن مجالس العلم وحِلَق الدُّروس في المساجد، الَّتي تتَّسع للعشراتِ والمئات، في حين نبذُلُ أفضل الأوقات في الجلوس أمام الشاشات.

رابعا: الرِّحلةُ في طلَب العِلم:

لقد اهتمَّ علماؤنا من سلف هذه الأمَّة بالعلم، وبذلوا النَّفيس من أجل بلوغه، فقد جابوا الآفاق بحثاً عن مجالس العلماء، ومَحاضر العلم، حتَّى أنَّ بعضهم قضى عمرَهُ كُلَّه في الأسفار والرَّحلات، حيثُ لم يمنعهم طُول المسافات ولا وعرُ الطُّرقات، ولابردُ الشِّتاء ولاحرُّ الهجير، بل كان شُغلُهم الشَّاغلُ طلب العلم، ومُجالسةُ العلماء، وعلى طالب العلم الَّذي يحبُّ الفلاح أنْ يعقد النِّيَّة في طلبه للعلم، وأنْ يتأَسَّى بسلفه الكرام من الأئِمَّة والأعْلام، ولابأس أن يَرتحل في سبيل ذلك مُذلِّلاً الصِّعاب بما يَسَّرهُ اللهُ لهُ من المراكبِ والوسائلِ في هذا الزَّمان، والحكمةُ ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أَحقُّ بها.

---

[1] ابنُ عثيمين، كتاب العلم، دار الثُّريا، (دط)، (دت)، ص43.

[2] محمد إسماعيل المقدَّم، عُلُوُّ الهِمَّة، ص173.

[3] أبو داوود، سُنن أبي داوود، طبع على نفقة محمد بن صالح الرَّاجحي، بيت الأفكار الدَّولية، كتاب العلم، باب الحثِّ على طلب العلم، الحديث رقم3641، 403.

قال الشّعَبِيّ:" لو أنَّ رجُلا سافر من أقصى الشَّام إلى أقصى اليمن، لِيسمع كلمةً حكمة، ما رأيْتُ سفرَه ضاع"[1]. ومِن حِرصهم على طلب العلم والرِّحلة في سبيل ذلك، جابُوا الآفاق "فهذا شُعبة(ت160هـ) رحمه الله يرحلُ شهراً كاملاً في طلب حديثٍ سمعهُ من طريقٍ لم يمُرَّ عليه"[2]. "وذلك جابرُ بن عبدالله(ت78هـ) رضي الله عنهما-صحابي أفضل منه- يقولُ: بلغني عن رجلٍ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثٌ سمعتُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمعهُ منه، قال: فابتعتُ بعيراً فشددتُ عليه رَحْلِيْ، فسِرتُ إليه شهراً حتَّى أتيتُ الشَّام، فإذا هو عبدالله بن أُنيْسٍ الأنصاري(ت54هـ)، فقلتُ: نعم، قال: فرجع الرَّسولُ إليه فخرج إليَّ فاعتنقني واعتنقْتُه، قال: قُلتُ: حديثٌ بلغني أنَّك سمِعتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المظالم لم أسمعه، فخشيتُ أن أموتَ أو تَمُوتَ قبل أن أسمعَهْ"[3].

كما أنَّ للرِّحلة في طلب العلم آدابٌ وقواعدُ، لابدَّ للمتعلِّم أن يعرفها حتى يتحلَّى بها فيحصُل له النَّفع والمعرفة؛ ومِن هذه الآداب والقواعد صِدقُ النِّيَّة والإخلاصُ لله تعالى، والتَّواضُع للعالم، واستِئذانُ الوالِديْنِ وطلبُ رِضاهما، فإذا اجتمعت هذه الأمورُ، فليتوكل طالب العلم على ربه، وسيَحْصُلُ له وعدُ الله كما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم:« من سلك طريقاً يلتمسُ فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة»[4]. وهو إذ يسعى إلى هذا بصدق فإنَّ الله تعالى موفِّقُه ومُسَدِّدُ خُطاه ومُبلّغه مُناه. "ومن فوائد الرِّحلة في طلب العلم: أنَّ الإنسان إذا سافر ورحل، وصرف المال ليلقى شيخاً يسمع منه، ويأخذ منه فائدة [فإنَّه] يصعُبُ أنْ تُنْسى هذه الفائدة؛ لأنَّ المعلومات الَّتي يَتعب الإنسانُ في تحصيلِها لاتُنسَ بسُهولةٍ، وهذه فائدةٌ مُهمَّةٌ من فوائد الرِّحْلة في طلب العلم"[5].

خامساً: حُسن الخُلُق والتَّواضع:

لاشكَّ أنَّ طالب العلم وهو في سعيه للتَّحصيل، من خلال مُجالسته للعلماء، وهو يعلم فضيلة مايسعى إليه، فإنَّ عليه التَّحلِّي بالأخلاق الفاضلة، الَّتي دعا إليها دينُنا الحنيفُ، في أقوالِهِ وأفعاله، وجميعِ أحواله؛ مع أبويه، أو شيوخه، أو إخوانه من طلبة العلم، أو عامَّة النَّاس. وكما علَّمنا الشُّيوخ والعلماء: الأدبُ قبل العلم، فهذه أم الإمام مالك بنُ أنس رضي الله عنه تُوصي ابنها أن يتعلَّم الأدب من شيخه قبل العلم قائلةً له: تعلَّم من أدبه قبل

---

(1) ابنُ عبدالبر، المصدر نفسُه، ص400.

(2) الخطيب البغدادي، الرِّحلة في طلب الحديث، دار الكتب العلمية-لبنان- ط1، 1975، ص153.

(3) الخطيب البغدادي، المصدر نفسُه، ص110.

(4) ابنُ أبي جمرة، مختصر صحيح البخاري، اعتنى به أبو المنذر سامي بنُ أنور خليل جاهين، دار المنهاج، السُّعودية، ط1، 2001، كتاب العلم، الحديث رقم10، ص43.

(5) محمد صالح المنَجِّد، طلب العلم والرِّحلة- التَّفريغ النَّصِّيّ- صوتيات إسلام ويب، 2016/02/28.

عِلمه، وهذا اللَّيث بنُ سعدٍ يقول لأصحاب الحديث:" تعلّموا الحِلم قبل العلم"[1]. بل إنَّ تعلُّم السَّمت والأخلاق مُقدَّم على تعلُّم العلم عند أسلافنا من العلماء، فعن سعيد بن أبي مريم(ت224هـ) قال: سمعتُ ابن وهْب(ت197هـ) يقول:" ما تعلَّمتُ من أدبِ مالك أفضل مِن عِلْمِه"[2].

لكن واقعنا اليوم هو خلاف لِمَا كان عليه أولئك الأعلام، يقول صاحبُ كتاب منطلقاتُ طالب العلم: " ولما تغافل النَّاسُ عن الاهتمام بالآداب الشَّرعيَّة ظهر الالتزام الهشُّ، وصار الإقبال على المفضولِ وتُرِك الفاضلُ، وظهرت الانحرافاتُ الفكريَّةُ والسُّلُوكيَّة والأخلاقيَّة؛ لأنَّ تلك الآداب-في حقيقة الأمر- حِصنُ الالتزامِ والإيمانِ الأول، فإذا تُرِكت تَرك السُّنن والفرائض، ونُقِضت عُرى الإيمانِ الواحدةُ تلوى الأُخرى"[3].

وعلى طالب العلم ألاَّ يترفَّع على إخوانه من طلبة العلم بما أفاء الله عليه مِن واسع علمه، بل إنَّ عليه" أنْ يُرغِّب بقية الطلبة في التَّحصيل، ويدُلَّهم على مضانِّه، ويصْرِف عنهم الهموم المشغِلَةَ عنه، ويُهَوِّنَ عليهم مُؤْنَتَهْ، ويُذاكِرَهُم بما حصَّلَهُ من الفوائد، والقواعد، والغرائب، وينصحهم في الدِّين؛ فبذلك يستنيرُ قلبُه، ويزكو عملُه"[4].

كما ينبغي لطالب العلم أن يُجِلَّ شيخه، وأن يُعظِّم من شأنه، ويرفع من قدره؛ بحيث يسكُت إذا نطقَ، ويُجيبُ إذا سأل، وأن لايُكْثِر من الضَّحك في مجلِسِه، فعن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قال:" مِن حقِّ العالِم أن لاتُكثِر عليه بالسُّؤال، ولاتُعْنِتْهُ بالجواب، وأنْ لاتُلِحَّ عليه إذا كَسَل، ولاتأخُذَ بِثَوبه إذا نَهض، ولاتُفْشِيَنَّ له سِرّاً، ولاتَغْتَابَنَّ عنده أحداً، ولاتَطْلُبَنَّ عثْرته، وإنْ ذلَّ قَبِلْتَ معذِرتَه، وعليك أن تُوَقِّرَه، وتُعَظِّمَهُ لِلَّه مادام يحفظ أمر الله ، ولاتَجْلِسَنَّ أمامه، وإنْ كانت له حاجةٌ سبَقْتَ القومَ إلى خِدْمتِه"[5].

وقال الحسن بنُ عليٍّ لابنه: " يابُنيّ! إذا جالَسْتَ العلماءَ فكن على أنْ تسمعَ أحْرَصَ منك على أنْ تَقُولَ، وتَعَلَّم حُسن الاستماع كما تتعلَّم حُسن الصَّمت، ولاتقطعْ على أحدٍ حديثاً وإن طال حتَّى يُمْسِك"[6].

---

[1] ابنُ عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص509.

[2] ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص509.

[3] محمد حسين يعقوب، منطلقات طالب العلم، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط2، 2002م، ص267.

[4] بدرالدِّين ابنُ جُماعة، تذكرة السَّامع والمتكلِّم في آداب العالم والمتعلِّم، ص124.

[5] ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص519.

[6] ابنُ عبدالبر، المصدر السَّابق، ص521.

وقد أنشد بعضهم قائلاً: ”

رأيْتُ أحَقَّ الحقِّ حقُّ العـــــــــالم وأَوْجَبَه حِفظاً على كُلِّ مســـــلِم

لقد حـــقَّ أن يُهدى إليه كرامـــةٌ لِتَعْـلِيْم حرفٍ واحدٍ أَلْفُ دِرْهـــم

وبعدُ فإنَّ مَن علَّمك حرفا واحداً ممَّا تحتاج إليه في الدِّين فهو أبوك في الدِّين“[1]. ومن خلال هذا كله نلحَظُ أنَّ حُسن الخُلُق مزيَّةٌ، وفضلٌ من الله ومنحةٌ، لابدَّ على طالب العلم أن يتَّصف بها، والتَّواضُع فهو دأبُ الأنبياء، والفُضلاء من صالحِي هذه الأُمَّة على نبيِّها أفضلُ الصَّلاة والسَّلام، خير معلِّم ومؤَدِّبٍ، مَن كان خُلُقه القرءان، والقائلِ: أقربُكُم منِّي مجلساً يوم القيامة أَحاسنُكُم أخلاقاً.

وخُلاصة هذا الفصل أن الإمام ابن عبدالبر رسم للعلماء وطلبة العلم منهجاً متكاملاً، يجمع بين كمالات النَّفس البشريَّة، وصُنوف المعارف المفْضية إلى السَّعادة والرُّقي، والذي ينظر إلى حال المجتمعات اليوم يرى فرقا شاسعا بين ما عاشه هؤلاء العلماء في ذلك الزمان، مع بساطة ما توفر لديهم من متاع الدنيا، غير أنهم بلغوا المنى بأخلاقهم، والمشكل الأكبر الذي ذهب بهذا الجمال والنعيم إنما كان بعد فصل التربية عن التعليم واكتفاء المؤسسات المخصصة للتربية والتعليم بتقديم المعارف في منأى عن التربية التي لايستقيم حال العلم إلا بها.

[1] برهان الإسلام الزَّرْنوجي، تعليم المتعلِّم طريق التَّعلُّم، تحقيق: مروان قبَّاني، المكتب الإسلامي، ط1، 1981، ص79.

الفصل الثَّاني:

– القواعد التَّعليميَّة في كتاب جامع بيان العلم وفضله

المبحث الأوَّل:

– القواعد التَّعليميَّة المتعلِّقة بالعالم

المبحث الثَّاني:

– القواعد التَّعليميَّة المتعلِّقة بالمتعلم

الفصل الثَّاني: القواعد التَّعليميَّة في كتاب جامع بيان العلم وفضله

تتوقَّف العمليَّة التَّعليميَّة على مجموعة من القواعد الَّتي يجب أنْ تتوفَّر في كلٍّ من المعلِّم والمتعلِّم، ومن هذه القواعد ما تطرَّق إليه ابنُ عبدالبر في كتابه- جامع بيان العلم وفضله- في غير ما موضع.

المبحث الأوَّل: القواعد التَّعليميَّة المتعلِّقة بالمعلم

إنَّ العمليَّة التَّعليميَّة النَّاجحة تُلزِم المعلِّم بعدم إغفال بعض القواعد الَّتي تساعده في عملية إيصال المعارف إلى المتعلِّمين بأسهل الطُّرق وأيْسر السُّبل ومن هذه القواعد:

أوَّلاً: تهيئة المتعلِّم:

تعدَّدت أساليب هذه القاعدة أو الطَّريقة، ومن أساليبها أن يفتتح المعلِّم درسه بالإجابة على أسئلة المتعلِّمين، وقد تطرَّق ابن عبدالبر إلى هذا الجانب في باب ابتداء العالم جلساءَه بالفائدة وقوله: "سلوني". ومن ذلك قولُه:" عن سعيد بن المسيَّب(ت94هـ) قال: ما كان أحدٌ من النَّاس يقول: سلوني غير عليّ بن أبي طالب"[1]. وعن خالد بن عرعرة التَّميمي قال:" سمعت علياً ابن أبي طالب يقول: ألا رجل يسأل فينتفع، وينفع جلساءه"[2].

فَفَتْحُ مجال الأسئلة قبل بداية الدَّرس طريقةٌ، وأُسلوبٌ من أساليب تهيئة المتعلِّم؛ وذلك من خلال إجابة المعلِّم على الأسئلة العالقة في أذهان المتعلِّمين، والَّتي قد تُشوِّش على عملية الاكتساب لديهم، كما أنَّ السُّؤال يساعد المعلِّم في معرفة مستوى المتعلِّم، وقُدُراته المعرفية. وفي هذا الصَّدد قال ابنُ عباس- رضي الله عنهما-" ما سألني رجل مسألة إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه"[3].

كما أن المعلِّم من خلال الأسئلة يُتيح لتلامذته فُرصة مناقشة الدَّرس، وإبداء الرَّأي ووجهات النَّظر. ثمَّ إنَّ المطَّلع على المنهج التَّعليميِّ النَّبوي يلاحظ وبكلِّ وضوح أنَّ هذا المبدأ اعتمده النَّبي صلى الله عليه وسلم، ومِن بعده صحابته، سواءٌ تعلَّق الأمر بأسئلته عليه الصَّلاة والسَّلام الَّتي يختبر بها أصحابه، أو تلك الَّتي تدعوهم إلى التَّفكير وإعمال العقل، ومثلُ هذا مايقوم به المعلِّم الذَّكيُّ من إثارة دافعيَّة المتعلِّمين وتنشيط أذهانهم، كلُّ ذلك من أجل الرَّبط بين مضامين الموضوعات، من خلال المعارف السَّابقة.

---

(1) ابن عبدالبر، مختصر جامع بيان العلم وفضله، ص104.

(2) ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص104.

(3) ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص105.

لقد أكَّدت النَّظريَّات التَّعليميَّة الحديثة على أنَّ تهيئة المتعلِّم قبل الولوج إلى الدَّرس عمليةٌ من الأهمِّيَّة بمكان؛ هذا الَّذي من شأنه أنْ يخلُق جوّا مناسباً للدَّرس. وممَّا لاشكَّ فيه أنَّ السُّؤال مفتاح العلم، وأحدُ القواعد الأساسيَّة في العمليَّة التَّعليميَّة، فهو مِن جهةٍ يُعينُ المعلِّم في عملية التَّقويم واختبار مدى التَّقدُّم العلميِّ والمعرفيِّ لدى تلامذته، ومِن جهةٍ أخرى يفتح المجال للمتعلِّم للوصول إلى المعارف الَّتي كان يجهلها، بل إنَّه المعَوَّل عليه في الدِّراسات والنَّظريَّات التَّعليميَّة الحديثة، لما يقوم عليه من العوامل النَّفسيَّة.

ولاعجب أنْ نجد هذا في الدِّراسات الغربية الَّتي استفادت بطريقةٍ أو أُخرى من التُّراث العربيِّ، الَّذي كتبه العلماء المسلمون؛ حيث أنَّ القرءان الكريم في كثيرٍ من توجيهاته، والسُّنَّة النَّبويَّة اشتملا على عديد النُّصوص الدَّاعية إلى السُّؤال وطلب حصول المعرفة، فمِنَ القرءان الكريم مثلا قول الله تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ ﴾ الأنبياء: ٧.

ولقد حفلت السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة بهذا الأسلوب وأمرت به؛ ذلك أنَّ السُّؤال مفتاحٌ من مفاتيح العلم، وأحد القواعد الأساسيَّة للتَّعلُّم، فهو وسيلةٌ مهمَّة عند كل من المعلِّم والمتعلِّم، فهو وسيلةُ المعلِّم في تقييمه لطُلاَّبه وتلامذته، وهو في الوقت نفسه مفتاحُ المعرفة لدى المتعلِّم؛ وذلك من حيثُ كونه يزيحُ عنه اللَّبس والحيرة ويفتحُ عليه آفاق المعرفة، ثمَّ إنَّ العرب قديماً مدحوا السُّؤال وأولوه اهتمامهم الكبير، وفي الشِّعر العربيّ والنَّثر القديم شواهد كثيرةٌ على ذلك ؛ ومن ذلك مثلاً ما نُقل عن الرَّامهرمزي عن يونس بنَ زيد الأيلي عن الزُّهري[1] قال: " للعلم خزائنُ تفتحها المسألة، ورُوي عن ابن سيرين قولُه: إنَّ للعلم أقفيةً ومفاتيحُها المسألة، وعن خالد المولى ثقيف قولُه: كان أبو العالية الرَّياحي(ت93هـ) جار بيتي، فكان يقول: سلني واكْتُب حديثي قبل أن تلتمسه عند غيري فلا تجده"[2].

ومن هذا المنطلق تتجلَّى أهمِّية السُّؤال، الَّذي ترفَّع واستكبر عليه كثير من الناس اليوم، وحتَّى في أصعب الظُّروف، إمَّا من باب الخوف وإماَّ من باب التَّكبر. وطالب العلم أحوجُ إلى سؤال العلماء.

---

[1] محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، الإمام العلم، حافظ زمانه أبو بكر القرشي الزهري المدني، روى عن ابن عمر، توفِّي سنة124هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج5، ص350،327.

[2] الرَّامهرمزي، المحدِّث المفصل بين الرَّاوي والواعي، تحقيق: محمد عجَّاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1971، ص360.

ثانياً: التكرار:

ويُعدُّ هذا العنصر أو الأسلوب عاملاً مهماً في العمليَّة التَّعليميَّة، وقد أشار ابنُ عبدالبر إلى هذا العامل، وعدَّه قاعدةً أساسيَّة ينبغي للعالم أن يعتمدها في كلامه حيث قال:" وواجبٌ على العالم أنْ يُكرِّر كلامه ذلك حتَّى يُفهم عنه، وقد كان بعضهم يَستحِبُّ أنْ لا يكرِّر كلامه ذلك أكثر مِن ثلاث مرَّات، لما ثبت عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أعادها ثلاث مرَّات؛ وذلك ليَفهم عنه كلُّ مَن جالسه، مِن قريبٍ أو من بعيد. وقالت جارية لابن السَّمَّاك الواعظ[1] له: ما أحسن حديثك، إلاَّ أنك تكرِّره. فقال: أكرِّره ليفهَمَه كلُّ مَن سمعه. فقالت: إلى أن يفهمَه كلُّ مَن سمعه يَمُلُّه كلُّ مَن فَهِمه"[2].

من خلال هذه الأقوال وغيرها تتبيَّن حكمة النَّبي صلى الله عليه وسلم، في تكراره لحديثه أكثر مِن مرَّة، فهو يقرِّر المعنى ويؤكِّده ليفهم السَّامع. ومن أمثلة هذا في المنهج التَّعليمي النَّبوي ما روى الإمام مسلم(ت261هـ) في صحيحه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « رَغِم أنفه، رَغِم أنفه، رَغِم أنفه. قلنا: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أو أحَدَهما، ثم لم يُدخلاه الجنَّة»[3]. فالنَّبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث الشَّريف يُعظِّم في قلوب أصحابه والمسلمين من بعدهم فضيلةَ بِرِّ الوالدين، وهو يعزِّز هذه الخصلة العظيمة عند أبناء المسلمين، ويبيِّن لهم كيف أنَّ البِرَّ مفتاح قلوبهما، وأنَّ الرِّضى منهما بعد رضى الله تبارك وتعالى مفتاح الجنَّة. ومن الأمثلة كذلك ما رواه أبوبكرة [4]رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجَلَسَ وكان متَّكِئاً ألا وقوْلُ الزُّور، قال: فمازال يكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت»[5].

لقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث إرشاد المسلمين ونصحهم بالابتعاد عن أكبر الكبائر، الَّتي قد تُفسد على المسلم دينه ودنياه، والَّتي تحول دون دخوله الجنَّة، ومن ذلك شهادة الزُّور، الَّتي حذَّر منها عليه الصَّلاة والسَّلام، ولم يكرِّر غيرها من تلك الكبائر لجرمها، وشناعة مايترتَّب عنها من اختلافٍ وفُرقة بين

---

[1] هو أبو العبَّاس محمد بن صبيح العجلي، مولاهم الكوفي، الزَّاهد، القدوة، سيِّد الوعَّاظ، روى عن الأعمش، وروى عنه أحمد بن حنبل، توفِّي سنة183هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج8، ص329.

[2] ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص131.

[3] أبو الحسن مسلم بن الحجَّاج، صحيح مسلم بشرح النَّووي، كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، باب: رغم من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخُل الجنَّة، الحديث رقم 2551، ص1189.

[4] أبو بكرة نفيعُ بن الحارث بن مسروح، صحابيٌّ جليلٌ، من رواة الحديث. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء ج3، ص05.

[5] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، باب ما قيل في شهادة الزور، الحديث رقم: 2654، ص1162.

المسلمين، وضياعٍ للحقوق، وما يترتب عن ذلك من ظُلم النَّاس، ورجمهم بالغيب، ثمَّ إنَّ أمثلة هذا كثيرةٌ ومتنوِّعة في سُنَّة خير المرسلين عليه الصَّلاة والسَّلام، ولايتَّسِع المقام للوقوف عليها جميعاً.

وتكمن أهميَّة التّكرار كما قال الخطَّابي[1]: " إعادة الكلام ثلاثاً، إمَّا لأنَّ مِن الحاضرين مَن يقتصر فهمُه عن وعيه، فيكرِّره ليَفهمَ، وإمَّا أن يكون القولُ فيه بعض الإشكال فيتظاهرُ بالبيان"[2].

الشَّاهد من هذا كلِّه أنَّه في الوقت الَّذي أهمل فيه المعلِّم العربيُّ أسلوب التَّكرار، وابتعد عن النَّهج التَّعليميُّ الَّذي ارتضاه له الله ورسوله، نجد أنَّ النَّظريَّات التَّعليميَّة الغربية قد تلقَّفت هذا العامل وأولته اهتماماً بليغاً، ولاجرم أنَّ عقول النَّاس متفاوتة في الإدراك، فهناك الذَّكيُّ الفطن سريعُ الفهم، وهناك مَن هو دُون ذلك، فلا بدَّ للمعلِّم، أو مَن هو في مقامه أنْ يُراعي أقدار السَّامعين وأن يكرِّر كلامه على مسامعهم حتى يفهموه، ويبلغوا مقاصده.

ثالثاً: التَّيسير في التعليم:

يعدُّ موضوع التَّيسير موضوعاً غايةً في الأهمِّية، كيف لا؟ والمعلم أو المخاطِب للنَّاس يسعى لتبليغ رسالة، وتأدية معنى، وقد تطرق ابن عبدالبر إلى هذه النُّقطة المهمَّة في العملية التَّعليميَّة، حيث ساقها في معرض كلامه عن آداب المعلِّم والمتعلِّم، مستدلاً بما رواه ابن عباس–رضي الله عنهما– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « علِّموا، ويسِّروا، ولا تُعسِّروا ثلاثاً»[3]. وقد تنوَّعت وتواترت الأحاديث الدَّالة على أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بذلك، ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري(ت256هـ) بلفظه:« إنَّما بُعثتم مُيسِّرين ، ولم تُبعثوا مُعسِّرين»[4]. وقد روى هذا الحديث الإمام مسلم(ت261هـ) هذا الحديث في باب الأمر بالتَّيسر وترك التَّنفير بقوله:« عن أبي

---

[1] الإمام العلاَّمة، الحافظ اللُّغوي، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البُستي الخطَّابي، سمع من أبي سعيد بن الأعرابي بمكَّة، وروى عن أبي عمرو بن السَّمَّاك، توفِّي سنة388هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج17، ص27،28.

[2] أميمه بدر الدِّين، التَّكرار في الحديث النَّبوي، مجلة دمشق، 2010، مج26، ع1، 2، ص77.

[3] ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص503.

[4] ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص503.

التِّياح[1] قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يسِّروا ولاتُعسِّروا وسكِّنوا ولا تُنفِّروا»[2].

مِن خلال هذه الأحاديث نلحظ أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يميل إلى التَّرغيب والتَّيسير في تعليم المسلمين الشَّرائع والأحكام، وهو معلِّم النَّاس التيسير، ولقد جُبلت القلوب على حبِّ كلِّ ما هو سهلٌ ويسير، وهنا تتجلَّى فطنة المعلِّم والمرشد؛ حينما يُبسِّط المعارف ويُقرِّبها إلى أذهان مستمعيه.

يُعتبر هذا العامل عنصراً مهماً في العمليَّة التَّعليميَّة، إذ إنَّ النَّظريَّات التَّعليميَّة المعاصرة تجعله من أهمِّ الطَّرائق في نقل المعارف، وهو في أكثر أحواله متعلِّقٌ بالمعلِّم، الَّذي يُمثِّل مصدر المعرفة، وهو الَّذي يختار الطَّريقة والأسلوب المناسب. وغير بعيدٍ من هذا ما نسمعه من دعواتٍ إلى تيسير العلوم والمواد التَّعليميَّة، مما تعقِده الجامعات والمشرفون على إعداد المناهج والمقرَّرات الدِّراسيَّة، ومن ذلك ما دعا إليه بعض الأساتذة والجمعيات، خاصَّةً فيما يتعلَّق بتدريس اللُّغة العربيَّة عامَّة، وعلم النَّحو العربي خاصَّة، من خلال تيسير قواعده مما يبعثُ في نفوس المتعلِّمين حُبَّه والرَّغبة في تعلُّمه.

ويُمكن في هذا المقام أن نستشهد ببعض هذه الأعمال، والَّتي انعقدت في الجزائر، فعلى سبيل المثال عُقدت ندوة سنة 1976م، والَّتي أكَّد المشاركون في أشغالها على ضرورة تعليم النحو في سياق متَّصل بالمستويات اللُّغوية الأخرى، إضافةً إلى أعمال الأستاذ عبدالرَّحمن الحاج صالح، الِّذي يرى أن تبسيط النَّحو للمبتدئين يكون من خلال ربط هذا العلم بالرُّموز الرِّياضية، أو الصُّور البيانيَّة، وفي هذا الصَّدد يقول:" وأحسنُ الطَّرائق التَّربوية لتحصيل النَّحو النَّظري؛ هي الَّتي تُقدَّم معلوماتُهُ وقوانينُه على شكل رسومٍ بيانيَّة بسيطة، يُشار فيها إلى العلاقات والعمليات بالرموز"[3].

---

[1] هو الإمام الحجَّة أبو التِّياح يزيد بن حميد الضَّبعي البصري، حدَّث عن أنس بن مالك، روى عنه سعيد بن أبي عروبة، وشعبة، توفي سنة130هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج5، ص252،251.

[2] مسلم بن الحجَّاج، المسند الصَّحيح لمختصر السُّنن، كتاب الجهاد واليُسر، بابٌ في الأمر بالتَّيسير وترك التَّنفير، الحديث رقم: 1734، ص830.

[3] أكلي سورية، حركة تيسير النَّحو العربي في الجزائر، مذكرة ماجستير مخطوطة، جامعة تيزي وزو، 2012، ص52.

كما أنَّ تيسير التَّعليم يكون بالاعتماد على الوسائل التَّعليميَّة المناسبة، التي تعين المتعلِّم على الفهم والتَّحصيل، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالتَّحليل، والتَّفسير، والاستنتاج، مما يختصر الوقت ويضفي شيئاً من النَّشاط داخل الصَّفِّ الدِّراسيِّ، أو في أيِّ عمليَّة تعليميَّة أخرى غيرها.

رابعاً: مراعاة القدرات العقليَّة:

إنَّه مِن المعلوم بالضَّرورة أنَّ عقول النَّاس متفاوتة في الإدراك، وكلٌّ حَسَب تفكيره وتحليله يدرك المعارف، وهنا يتأتَّى دور المعلم حَسَب ابن عبدالبر إذ يورد في هذا المقام قول ابن مسعود رضي الله عنه« مَا أَنْتَ مُحدِّثاً قوماً حديثاً لا تَبلُغه عقولُهم، إلاَّ كان لبعضهم فتنة»[1]. وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال:« حدِّثُوا النَّاس بما يعرفون، أتُريدون أنْ يُكذَّب الله ورسُولُه؟»[2].

لاشكَّ أنَّ المتتبِّع لمنهج النَّبي صلى الله عليه وسلم سيُدرك بحقٍّ أنَّه كان مُيسِّراً في كلِّ الأحوال، وهكذا الأمر عند صحابته من بعده، فالمعلِّم الجيِّد هو الَّذي يختار المادَّة التَّعليميَّة المناسبة لعقول المتعلِّمين ومَداركهم، فيتناولُها بيُسر وتبسيطٍ حتَّى لا تنفر منها أنفسهم، فيعتمد أسلوب التَّدرُّج في تقديم المعارف، ف" يبدؤهم بالأسهل والأيسر، وأنْ يعلِّم المتعلِّمين جزئيات العِلمِ قبل كلِّياته، أو فروعَه قبل أصوله، أو مقدِّماته قبل مقاصده"[3].

ولقد اهتمت النَّظريات التَّعليميَّة الحديثة بالعوامل النَّفسية، لما لها من أهمِّية في العملية التَّعليميَّة، بما فيها الفروق الفرديَّة وما ينتُج عنها من العبقريَّة وسرعة الإدراك، أو ضعف الفهم والتَّفكير؛ ذلك أنَّ للعوامل النَّفسيَّة والاجتماعيَّة بالإضافة إلى النُّضج العقلي دوراً مهمّا في التَّحصيل، مما يُتيح للمعلِّم اختيار المادَّة التَّعليميَّة المناسبة، والأسلوب المناسب وعقول المتعلمين.

من خلال ماسبق يتبيَّن أنَّ ابن عبد البر قد جمع في مُؤلَّفه أهمَّ القواعد الَّتي ينبغي للمعلِّم اعتمادُها في عمليَّة التَّعليم، حتى يتسنَّى له تبليغ المادَّة العلميَّة للمتعلِّمين.

---

(1) محمد عبدالرَّؤوف المناوي، فيض القدير بشرح الجامع الصَّغير، ضبط وتصحيح: أحمد عبدالسَّلام، دار الكتاب العلميَّة، لبنان، ط1، 1994م، تتمة حرف الكاف، حرف الميم، الحديث رقم: 7838، ج5، ص546.

(2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: مَن خَصَّ بالعلم قوماً دُون قومٍ كراهية ألاَّ يفهموه، الحديث رقم 127، ص272.

(3) علي بن إبراهيم الزَّهراني، بحث بعنوان: الأساليب التَّعليمية المستقاة من تراجم البخاري، كلِّية الدَّعوة وأُصول الدِّين، الجامعة الإسلاميَّة، المدينة المنوَّرة، ص433,434.

المبحث الثَّاني: القواعد التَّعليميَّة المتعلِّقة بالمُتعلِّم

بعد استعراضنا لأهمِّ القواعد التَّعليميَّة المتعلِّقة بالمعلِّم، الَّتي أوردها ابنُ عبد البر، والَّتي دعت إليها النَّظريات التَّعليميَّة الحديثة، لما لها من الأهمِّية الفائقة في نجاح العمليَّة التَّعليميَّة، ومن أجل تحقيق هذا لابُدَّ أنْ نقِف أيضاً على أهمِّ القواعد المتعلِّقة بالمتعلِّم، الَّتي ساقها ابن عبدالبر وإنْ لم يذكرها بهذه المسمَّيات، إلاَّ أنَّه أشار إليها بعباراتٍ أخرى وهي كالأتي:

أولاً: الاستعداد:

وهو بمثابة خطوةٍ تمهيديَّة لعمليَّة التَّلقِّي، بل إنَّ العمليَّة التَّعليميَّة في مُجملها متوقِّفةٌ عليه؛ إذْ إنَّ الرَّغبة والميلَ هما نصف العملِّية التَّعليميَّة، ويبقى النِّصف الآخر للمعلومة. يُعرِّفه الأستاذ علي راجح بركات بقوله:" هو التَّهيُّؤ العقلي، والنَّفسي، والعضوي، الَّذي يُصاحب نشاطاً ما[1]".

فالاستعداد من خلال التَّعريف يجمع بين النُّضج العقلي والتَّهيُّؤ النَّفسي، بما فيه من رغباتٍ وميولٍ ودوافع. ويختلف الاستعداد من مُتعلِّم لآخر، ففي حين نرى المتعلِّم زيدا يكره مادَّة الرِّياضيات نجد عمراً يتُوق لحِصَّتها، وبالتَّالي تفوُّقه فيها. وقد أشار ابنُ عبد البر إلى دور الاستعداد في العمليَّة التَّعليميَّة مِن خلال ما أورده في كتابه: عن عبد الوارث بن سفيان، عن قاسم بن أصبغ[2]، عن أحمد بن زهير[3] قال: سمعت سعيد بن يزيد يقول: سمعت علي بن الحسين بن شقيق[4] يقول: سمعت ابن المبارك(ت181هـ) يقول:"أوَّل العلم النِّية، ثمَّ الاستماع، ثمَّ الفهم، ثمَّ الحفظ، ثمَّ العمل، ثمَّ النَّشر"[5].

---

[1] علي راجح بركات، بحث نظريات التَّعلُّم- قسم علم النفس- جامعة أم القرى، السُّعودية، ص15.

[2] ابن محمد بن يوسف بن ناصح، قيل: واضح بدل ناصح، الإمام الحافظ العلاَّمة محدِّث الأندلس أبو محمد القرطبي، مولى بني أميَّة. سمع بقيَّ بن مخلد، ومحمد بن وضَّاح، حدَّث عنه: حفيده قاسم بن محمد، توفِّي سنة340هـ، الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج15، ص473.

[3] الإمام الحجَّة المحدِّث البارع، عالم الحفَّاظ، شيخ الإسلام أبو جعفر، أحمد بن يحيى بن زهير التستري الزَّاهد، حدَّث عنه: أبو حاتم بن حبان، توفِّي سنة310هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج14، ص362، 363.

[4] ابن دينار بن مشعب، الإمام الحافظ، شيخ خراسان أبو عبد الرَّحمن العبدي مولاهم، المروزي، لزم ابن المبارك دهراً وحمل عنه جميع تصانيفه، حدَّث عنه البخاري، وأحمد بن حنبل، توفي سنة215. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج10، ص349، 351.

[5] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص476،477.

من خلال هذا القول نخلُص إلى أنَّ علماءنا أشاروا إلى قضيَّة الاستعداد في كتبهم، وإنْ لم يُوردوها بهذا المصطلح، وإنما سمَّوها بدلاً من ذلك النِّية أو الرَّغبة، وقوله:" أوَّل العلم النِّية، ثمَّ الاستماع" دليلٌ على أنَّ العمليَّة التَّعليميَّة في أصلها قائمةٌ على عامل الرَّغبة، الَّتي لاتتأتَّى إلاَّ بالمحبَّة الصَّادقة للشَّيء المرادُ تعلُّمه، والَّتي تكون بحبِّ الاستماع والإنصات؛ اللَّذان يجعلان من المتعلِّم حاضراً بالفعل في حلق التَّعليم.

وقد أشارت نظريَّات التَّعليم الحديثة إلى أهمِّية الاستعداد في نجاح العمليَّة التَّعليميَّة، فهذا ثورندايك صاحب نظريَّة التعلُّم بالمحاولة والخطأ يرى" أنَّ الوِحدة العصبية حينما تكون مستعدَّةً للعمل، فإنَّ عملها يُريح الكائن الحي. من خلال هذا القول يبين ثورندايك أنَّ التَّأهُّب والاستعداد للعمل يُعدُّ عاملاً مهمّا في العمليَّة التَّعليميَّة، وأنَّ أيَّ شيءٍ يشوِّش هذا الاستعداد يؤثِّر سلباً على هذه العمليَّة، فالتِّلميذ الَّذي استعدَّ للاستذكار واتَّخذ مكانه من المكتب، وأحضر أدواته يريحه أنْ يشرع في عمله (الاستذكار)، ويسبب له الضَّيقَ أنْ يُطلب منه إحضار شيءٍ أو المساعدة في عمل آخر، حتَّى ولو كان يرتاح لهذا العمل في أوقاتٍ أخرى، وكذلك التِّلميذ الِّذي يشرع في اللَّعب مع زملائه ويُجبَر على العودة من اللَّعب والبدء في المذاكرة، فإنَّ إجباره على القيام بهذا العمل الأخير الَّذي لاتتوفَّر له ظروف الاستعداد يُسبِّب له الضَّيق"[1]. وبالتالي لن تحصل الاستفادة من المراجعة التي يراجعها في هذا الظَّرف غير المناسب لديه.

ثانياً: المذاكرة (مُراجعة المادَّة التَّعليميَّة):

إنَّ مذاكرة العلوم قاعدة أساسية لكل من يسعى للتعلُّم فتخصيص أوقاتٍ لذلك أمرٌ من الأهمِّية بمكان، وحتَّى لاينسَ المتعلِّم ما اكتسبه من المعارف والخبرات، وقد أشار ابن عبدالبر إلى هذه النُّقطة المهمَّة من خلال قوله:" روى عيسى بن سعيد المقرئ، عن أبي بكر محمد بن صالح الأبهري[2] أنه أنشد لبعضهم:[3]

إذَا لم يُذَاكر ذُو العُـــــــلوم بعِلمِه ... ولم يَسْتزِد عِلماً نَسِيْ ماتَعلَّمـــــــا

وكَمْ جامعٍ للعِـــــلم في كُلِّ مَذْهَب ... يَزِيدُ على الأيَّـــــامِ في جَمْعِه عَما

---

[1] إبراهيم وجيه محمود، التَّعلم أسُسه، نظرياته وتطبيقاته، دار المعرفة الجامعيَّة، مصر، (دط)، (دت)، ص124.

[2] الإمام العلاَّمة، القاضي المحدِّث، شيخ المالكية أبو بكر، محمد بنُ عبد الله بنُ محمد بنُ صالح التَّميمي الأبهري المالكي، حدَّث عنه الدَّارقطني، توفِّي سنة375هـ. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج16، ص332، 333.

[3] ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص430.

وقال رجلٌ لأبي هريرة رضي الله عنه: إنِّي أريد أنْ أتعلَّم العِلم، وأخاف أنْ أُضيِّعه. فقال أبو هريرة: كفى بِتركِك له تضييعاً''[1].

لقد أشار العلاَّمة ابنُ خلدون إلى أنَّ المهارات والخبرات إنَّما تُكتسب عن طريق التّكرار، وتتابُع الأفعال ومعاودتها، حتى يُثبِّتها المتعلِّم في ذهنه، حيث قال:'' إنَّ الملَكات إنَّما تَحصُل بِتتابُع الفعل وتكراره، وإذا تنُوسِيَ الفعل تُنُوْسِيت الملَكة النَّاشئة''[2].

فالتّكرار على حدِّ قول ابن خلدون يُرَسِّخ المعارف ويُثبِّتها في الذِّهن. قال الرِّياشي[3]:'' سمعتُ الأصمعيَّ(ت216هـ)، وقيل له: كيف حفِظتَ ونسيَ أصحابُك؟ قال: درستُ وتركُوا''[4].

وقد تناولت نظريَّاتُ التَّعلُّم الحديثة هذا العامل في بحوثها ودراساتها لسلوك الكائن الحيِّ مبيِّنةً أهمِّيَّتَه وضرورتَه لنجاح العمليَّة التَّعليميَّة، وبالعودة إلى نظرية التَّعلُّم بالمحاولة والخطأ، نجد ثورندايك يبيِّن دور المِران (التَّكرار) في عملية التَّعلُّم ''فقد لاحظ أن تكرار الاستجابة للوصول إلى الهدف، يُؤدِّي إلى زيادة قوَّة هذه الاستجابة''[5].

وهو ماتطرَّق إليه جثري(1886م-1959م) عند حديثه عن التَّعلُّم، حيث يرى أنَّ اكتساب أو تعلُّم أيَّ مهارة كالقراءة أوالكتابة'' إنما يحتاج إلى تكرار الموقف عدداً من المرَّات، يتمُّ من خلالها تعلُّمُ الحركات المتضمَّنَة والتَّوافق بينها، حتَّى يتمكَّن في النِّهاية من السَّيطرة على المهارة الكلِّية، أو نمط السُّلوك المطلوب، ومن هذه النَّاحية وحدها ينظر جثري إلى أهمِّية التّكرار؛ بمعنى أنَّ وظيفتَه تنحصر في المواقف الَّتي تتضمَّنُ الحركات، الَّتي ترتبط بعضُها ببعض لتُؤَدِّي عملاً مُعيَّناً ''[6].

---

[1] ابن عبدالبر، المصدر السَّابق، ص432.

[2] نهى عارف، التَّربية عند ابن خلدون، رسالة لاستكمال متطلَّبات نيل درجة أستاذ العلوم -الجامعة الأمريكيَّة- بيروت 1959، ص112.

[3] أبو الفضل عبَّاس بن الفرج، العلاَّمة الحافظ، شيخ الأدب، الرَّياشي البصري، سمع من طائفةٍ كثيرة، وحمل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، والأصمعي، أخذ عنه المبرِّد، وأبو بكر بن دريد، توفي سنة257. الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج12، ص272، 274.

[4] ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص93.

[5] إبراهيم وجيه محمود، التَّعلُّم أسُسه، نظريَّاته وتطبيقاتة، ص122.

[6] إبراهيم وجيه محمود، المرجع نفسُه، ص122.

ثالثاً: السُّؤال:

كنَّا قد أشَرنا فيما سبق مِن هذا البحث إلى أهمِّية السُّؤال بالنِّسبة للمعلِّم، والَّتي تتعلَّق بتهيئة المتعلِّمين وتقويمهم، إلاَّ أنَّنا نجد أنَّ السُّؤال يكتسي أهمِّيةً كبيرةً أيضاً بالنِّسبة للمُتعلِّم، بل إنَّه اساس تحصيل المعرفة لديه؛ إذ يُعتبر عاملاً مهمّاً في زيادة رصيده المعرفي، وسبباً وجيهاً في تعلُّمه لما يجهله، إذا أحسن استغلاله، ولم يستحِ أو يتكبَّر عن سُؤال غيره. وقد وردت في الذِّكر الحكيم والسُّنَّة النَّبويَّة الشّريفة عديدُ الأوامر والتَّوجيهات بالسُّؤال والاستفسار، ومن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل: ٤٣. وقوله تعـــالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾﴾ الفرقان: ٥٩.

من خلال الآيتين يتبيَّن للمسلم أنَّ عليه سُؤال العلماء وأهل الاختِصاص فيما يلتبِس عليه من أحكام دِينه، وأحوال دُنياه ومواقفها، ولابأس في هذا المقام أنْ نُورد حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يُبيِّن فيه أهمِّية السُّؤال والقصَّة الواردةُ في ذلك موت الصَّحابي المجروح بعد أن اغتسل من الجنابة، والشَّاهد من ذلك قوْله عليه الصَّلاة والسَّلام: « ألاَ سألُوا إذْ لم يعلمُوا فإنَّما شِفاء العِيِّ السُّؤال...»[1]؛ أي أنَّ شفاء الجهل والخروج من ظُلُماته إلى ظُلمات العلم والمعرفة مُرتَهن بالسُّؤال والبحث عند أهل المعرفة والتَّحقيق. وهذا ما أشار إليه ابنُ عبدالبر واستشهد عليه بقول ابنِ الأعرابيّ(ت231هـ)[2]:

وسَلِ الفقيه تكُن فقِيهاً مِثـــْـــله ... مَن يَسْع في عِـــــــلمٍ يفقَهْ ويمهُر

وتدبَّر العـــــــلم الَّذي تُعنى به ... لاَخَير فِي عِلـــــــــمٍ بِغيرِ تَدبُّر

ومعنى هذا أنَّ مَن أراد الفقه والعلم، فإن عليه أنْ يُزاحم بِرُكبتيه العلماء والفقهاء، وأنْ يتدبَّر العلوم بفهمٍ وعملٍ حتَّى يمهُرَ ويبلُغَ شأواً عظيماً. ولعلَّ هذا ما عناه ابنُ شهابٍ(ت124هـ) بقوله:" العلمُ خزانةٌ مفتاحُها السُّؤال، وقد ذكر أبو العبَّاس أحمد بنُ يحي ثعلب(ت291هـ) عن ابنِ شَبِيب أنَّه قال: لايكونُ طبعٌ بلا أدب، ولاعلمٌ بلا طلب"[3]. والمقصودُ أنَّ العلوم تتباين فُرُوعها وشُعبها، وأنَّ الَّذي يحدِّدُ هذا التَّنوع هو طبيعة السُّؤال، وأنَّ الفهم والتَّحصيل لايكونُ إلاَّ بقدر البحث والسُّؤال، والإلحاح في الطَّلب.

---

[1] السِّجستاني سليمان بن الأشعث، صحيح سُنن أبي داوود، مكتبة المعارف، الرِّياض، كتاب الطَّهارة،ب اب المجروح يتيمم، الحديث336،ج1 ،ص62.

[2] ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله، ص81.

[3] ابن عبدالبر، المصدر نفسُه، ص92.

رابعاً: الحفظُ والفهمُ للعلوم:

لابدَّ للمتعلِّم مِن الفهم أوَّلاً ثمَّ الحفظ ثانياً، إذْ لا فائدة تُرتجى من الحِفظ والتَّرسيخ دُون الفهم والتَّحقيق، وفي هذا المقام يقولُ ابن عبدالبر:''وفي النَّظم ما يُنْسَب إلى اللُّؤلُؤي(ت204هـ) من الرَّجز، وبعضُهم ينسِبُه إلى المأمون، وقد رأيت إيرادها لحُسنِ رجاء النَّفع به قال[1]:

واعْلَم بأنَّ العِـلم بالتَّعـَـــــلُّم ... والحِفْظِ والإتقـــــــــانِ والتَّفهُّم

والعِـلمُ قـــــــــد يُرْزقُهُ الصَّغير ... في سِنِّه ويُحـــــــــــــرَم الكبِير

فإنَّمـــــــــــــا المرءُ بِأصْغَرَيه ... لَيْسَ بِرِجـــــــــــــلَيْه ولاَيَديه

لِســـــانُهُ وقـــَـــــــلبُهُ المركَّب ... في صَدره وذاكَ خـــَـــــلقٌ عَجَب

والعِـــلمُ بالفَهْمِ وبالمُـــــــذاكَرة ... وَالدَّرس وَالفِكـــــــــرة والمناظَرة

من خلال هذه الأبيات نخلُص إلى أنَّ الحفظ تابعٌ للفهم، وأنَّ عملية التَّعلُّم متعلِّقة بهما، والتَّعلُّم في الأصل أنْ يَقْدِر المتعلِّمُ على استرجاع ماتعَلَّمهُ من خلال الفهمِ والحفظ. ويجعلُه ملازماً لعلمه واعياً له في صدره، فهو يجُوب الآفاق ويرتحلُ حيثُ ماشاء بعلمه، وهذا حال المتعلِّم الصَّادق في طلبه، وعن مثل هؤلاء يقولُ هِبة الله البغدادي[2]، أبياتاً تُنسَبُ إلى الشَّافعيِّ[3]:

عِـــلمِي مَعِي أَيْنَـــما هِمْتُ يتبعُنِي ... بَطنِي وِعـــَـاءٌ لَهُ لاَ بَطنَ صُـــــــندُوق

إنْ كُنْتُ فِي البَيتِ كَانَ العِـــلمُ مَعِي ... أو كُنْتُ في السُّوق كان العِلم في السُّوق

وقال ابنُ شديد الأزدي[4]:

أَأَشْهَـــــــدُ بِالجَهلِ فِي مجْـــــلِس ... وَعِـــــــلْمِي فِي البَيتِ مُسْـــــتَوْدَع

إذ يُمكن للإنسان أن يمتلك ما شاء من الكُتُب والمؤَلَّفات، لكنَّ شهادة النَّاس له بالجهل؛ لأنَّه لم يَفِد منها، ولم يُحْسن استغلالها، ولأن غايته تزيينُ الخزائن والرُّفوف، وأن يُرائيَ النَّاس بها.

---

(1) ابن عبدالبر، المصدر المصدر السَّابق، ص138.

(2) أبو عبد الله محمد بنُ محمود بنُ حسن بنُ هبة الله بنُ مُحاسن البغدادي، ابنُ النَّجَّار، ألَّف كتاب" القمر المنير في المسند الكبير "، توفِّي سنة685هـ، الذَّهبي، سير أعلام النُّبلاء، ج23، ص132، 134.

(3) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ط3، 1996، مج2،ج9، ص374.

(4) الخطيب البغدادي، المصدر نفسُه، ص376.

فالحفظ من النِّعم الجليلة الَّتي أنعم اللَّه بها على الإنسان، إذْ به انتشرت وتواترت العلوم، وبه حفظ الله تعالى دينه وشريعَته، وأعظمَ من ذلك الذِّكر الحكيم، الَّذي حماه من اللَّحن والانحراف والأغلاط، وقد بيَّن نبيُّنا المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام أهمِّيَّته، وضرورة الصَّبر عليه، والقصَّة الواردة في ذلك مشهُورة كما يوردها أهل الحديث، ومفادها أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم زوَّج صحابياً امرأةً، وكان مهرُها سُوَرٌ من القرءان الكريم كان قد حفِظها، بعد أن عجز عن دفع مَهرِها، فكان هذا الحِفظ مهراً، ونِعم المَهر مَهرُه، وزيادة على هذا فإنَّ أهمِّيَّة الحفظ في ديننا الحنيف؛ وأعني حفظ القرءان الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ترقى بالمرء الى أعلى الدَّرجات في جنَّات النعيم، وحافِظُ القرءان الكريم لاتمسُّ النارُ جسدَه؛ ذلك أنَّ عقله وعى بين جنبيه أعظمَ ما وعى العقلُ البشريُّ.

ولقد دعا الله تعالى عباده في كتابه الحكيم في غير موضع إلى التَّدبُّر، والتَّفكُّر، والتَّفهُّم لما حولهم، ولِما ورد في الذِّكر الحكيم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد: ٢٤.

وقد أثبت كوهلر في نظريَّته الجشطالتية " أنَّ سلوك الحيوان يَنبني على الفهم وإدراك الموقف، ومتى تغيَّر السُّلوك نتيجة الاستبصار؛ فإنَّه يظلُّ كما هو"[1].

ولولا الحفظ لما بلغنا شيء من علوم أسلافنا، والحفظ يُنشِّط ذاكرة المتعلِّم ويُعوِّدُها على حب القراءة والتخزين، ثمَّ فيما بعد الاسترجاع، فإذا أهتم بها المتعلِّم طوّرها وعوَّدها تمرَّنت، وإذا أهملها وقصَّر فيها ضعُفت وضاقت.

خُلاصة القول في هذا الفصل أنَّ ابن عبدالبر بيَّن لكلٍّ من العالم والمتعلِّم أهم القواعد الَّتي بها تتحقَّق المعرفةُ، من خلال إشارته إلى أهم الأساليب الفعَّالة، الَّتي دعت النَّظريات التَّعليميَّة إلى اعتمادها في عمليَّة التَّدريس، كالتَّيسير، والتّكرار،... وغير ذلك من الأساليب التَّعليميَّة الحديثة، ولقد استقى ابن عبدالبر هذه القواعد من كتاب الله تعالى، وسنَّة المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام، وآداب العرب عموما.

[1] إبراهيم وجيه محمود، التَّعلُّم أسُسه، نظريَّاته، وتطبيقاته، ص203.

خاتمـــة

خـــــــاتمة:

حاوَلنا من خلال هذا البحث أنْ نعْرِض بالدِّراسة والتَّحليل لقضيَّة من أهمِّ القضايا، الَّتي شغلت الباحِثِين في مجال التَّربية والتَّدريس، والَّتي أوْلَتها النَّظرياتُ الحديثة ومُصمِّمُوا المناهج الأهمِّية الكبرى؛ إنَّها التَّعليميَّة والقواعد الَّتي تُبنى عليها، وما يترتَّب عن ذلك من تحقيقٍ للغايات المنشُودة. ومن خلال القواعد الِّتي سطَّرها الإمام ابنُ عبدالبر في كتابه الجامع، وبعد الوقوف على أهمِّ هذه القواعد وتحليل مضامينها خَلَصنا إلى النَّتائج التَّالية:

1. أنَّ كتاب جامع بيان العلم وفضله، كتابٌ تربويٌّ تعليميّ، جمع بين طيَّاته عديد القواعدِ التَّربويَّة والتَّعليميَّة. وإن كان في أصله مركِّزاً على الجانب التَّربويّ بشكلٍ أكبر.
2. مِن خلال الوُقوف على أهمِّ أبواب الكتاب، يتَّضح جَليًّا أنَّ العملية التَّعليميَّة عند ابنِ عبدالبر في مُجملها تقوم على شِقَّين؛ الأوَّل متعلِّق بالمادة التَّعليمية وطريقة تبليغها، والثَّاني متعلِّق بأهمِّ القيم والمبادئ الَّتي يجب التَّأدُّب بها، لكلِّ من سلك طريق العلم والتَّعلم.
3. أنَّ الإمام ابن عبدالبر؛ الَّذي عاش في ذلك الزَّمان، حاز قصب السَّبق في الإشارة إلى جملةٍ من الاستراتيجياتِ والفنِّيات، الَّتي تقومُ عليها العمليَّة التَّعليميَّة، والَّتي دعت إليها النَّظريَّاتُ التَّعليميّة الحديثةُ مثل التّكرار للمعلومات المراد إيصالها للمتعلِّمين.
4. أنَّ طريقة التَّدريس عند ابن عبدالبر، تنطلقُ من تهيِئة المتعلِّم، ثمَّ الدُّخول في الدَّرس، مع اعتماد أسلوب التّكرار.
5. أنَّ العلماء العرب بما فيهم ابن عبدالبر راعَوا الجوانب النَّفسيَّة للمتعلِّم، من خلال دعوتهم لمراعاة الفُروق الفردية للدارسين في العمليَّة التَّعليميَّة.
6. يتبيَّن من خلال أبواب الكتاب أنَّ العملية التَّعليمية عند ابن عبدالبر تقوم على أركان أربعة؛ المعلم، والمتعلم، والمادة العلمية، والاستراتيجيات المعتمدة في ذلك كله، وإن لم يوردها المؤلِّف بهذه المسمَّيات.
7. لقد رسم ابنُ عبدالبر من خلال مُؤَلَّفه منهجاً تعليميّا مُتكاملاً، يصلُح الرجوع إليه واعتمادُه في إعداد المناهج الدِّراسية في البلاد العربيَّة، لاسيما المقرَّراتُ الدراسيَّة المعَدَّة لتلاميذ المراحل الإعدادية؛ لِما تستلزمُه من الجُهود، والطَّرائق المناسبة والفعَّالة.
8. أنَّ الكتاب بمجموع القواعد الَّتى اشتمل عليها؛ والتَّي تطرَّقنا إليها، أو لم نتطرَّق إليها لَيُعَدُّ من الدِّراسات الأُولى، الِّتي جمعت بين جانب القيم، وجوانب المعرفةِ المختلفة، الَّتي شكَّلت منهجاً تعليمياً قائماً على الآداب الإسلامية.

غيرَ أنَّ كثيراً من الدَّارسين والباحثين في حقل التَّعليميَّة وطرائق التَّدريس، انبهرُوا بما جاءت به النَّظريات التَّعليميَّة الحديثة، وما دعت إليه من خلال مبادِئها، وأغفلوا تُراثهم العربي؛ الَّذي اشتمل على كثيرٍ من هذه المبادئ، بل إنَّ كثيراً من هذه النَّظريات استوحت هذه الأُسُسَ مِن خلال استقرائِها لكُتُب التُّراث العربيّ الإسلامي، وصاغتها بطريقتها الخاصة كما في سائر علوم الحياة الَّتي سبق إليها العلماءُ العرب المسلمون.

توصيّة:

أما التَّوصية الَّتي رأينا جدْوى مُراعاتها علمياً وعملياً بعد هذا البحث، ضرورةُ الرُّجوع إلى كُتب التُّراث المتنوِّعة، الَّتي بحثت في حقل التَّعليمية، أو جانب التَّعليم بشكلٍ عمومي؛ من خلال استقرائها، وتحقيق مخطوطِها، كلُّ ذلك من أجل الوُقوف على ما تتضمَّنه من الآراء والأفكار، الَّتي مِن شأنها أنْ تُسلِّط الضَّوء على مواضيع عديدة، يلتقي فيها التُّراث العربيّ في الحقل التعليمي مع أحْدث ما توصَّل إليه البحثُ التَّربوي والتَّعليمي الحديث في الدراسات الغربية، والَّذي سيُظهر وبلا شكٍ مدى استمراريّة الفكر اللُّغوي العربيّ عبر العُصور، والاستعانة بها في إعداد المناهج التَّعليمية، والمقرَّرات الدِّراسية مثل كتاب آداب العالم لابن جماعة، وكتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.

وختاماً فإنَّنا نضع هذا البحث بين يدي كلِّ من يريد البحث في الفكر التَّربوي والتَّعليمي عند العلماء العرب، وبالأخص الإمام ابن عبدالبر، من خلال كتبه المختلفة، ولربَّما وجد في هذا العمل اعوجاجاً فقوَّمه، أو لُبسٌ فبيَّنه، فإن الكمال لله وحده، ولِسانُ حالنا كما قال عبد الرحيم البيساني: " إنِّي رأيتُ أنَّه لا يَكتب أحدٌ كتاباً في يومهِ إلاَّ قال في غَدِهِ: لوُ غُيِّرَ هذا لكان أحسنُ، ولو زِيد هذا لكان يُستحَسنُ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضلُ، ولو تُرِك هذا لكان أجملُ". وهذا أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النُّقص على جملة البشر، والحمد لله في بدءٍ وفي خَتم، وصلىَّ الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

ثبت المصادر

والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

أوّلاً: القرآن الكريم برواية الإمام حفص عن الإمام عاصم

ثانياً: المصادر

أ.كتب الحديث

1. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المطبعة السَّلفية، مصر، 1375م.

2. سُنن ابن ماجه، ابن ماجة القزويني، طُبع على نفقة محمد بن صالح الرَّاجحي الأفكار الدّولية، (دط)، (دت).

3. سُنن التِّرمذي، التِّرمذي، تحقيق بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (دط)، 1988م، ج4.

4. صحيح سنن أبي داوُد، السِّجستاني؛ سليمان بنُ الأشعث، مكتبة المعارف، الرِّياض، مج1.

5. صحيح مسلم بشرح النَّووي، أبو الحسن مسلم بن الحجَّاج، تحقيق وتعليق: مصطفى ديب البغَّان، دار العلوم الإنسانية، دمشق، 1997م.

6. مُختصر صحيح البخاري، ابن أبي حميدة الأزدي، مؤسَّسة الكتاب الثَّقافيَّة، بيروت، ط1، 1986م.

المسند الصَّحيح لمختصر السُّنن، مسلم بن الحجَّاج، تحقيق: محمد الفِرياني أبو قتيبة، دار طيبة، ط1، 2006م، مج2.

ب. المعـــــاجـــم

1. مختار الصِّحاح، محمد أبي بكر عبدالقادر الرَّازي، تدقيق: عاصم فارس الخُرساني، دار عمان، عمان، ط9، 2005م.

2. معجم الوسيط، مَجمع اللُّغة العربية، مكتبة الشُّروق الدّولية، ط4، 2004م، مج1.

ج.المصادر العامة

1. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، تحقيق: أبي الأشبال الزُّهيري، دار ابن الجوزي، ط1، 1994م، ج1.

2. تذكرة السَّامع والمتكلِّم، ابن جُماعة، اعتناء: محمد بن مهدي العَجْمي، دار البشائر الإسلاميَّة، لبنان، ط3، 2012م.

3. مُختصر جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، اختصره: أحمد بن عمر الحمصاني البيروني، تحقيق: حسين إسماعيل مروة، المكتبة التِّجارية، دار الخير، مكّة المكرَّمة، ط1، 1992م.

4. مختصر جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، دار الخير، ط1، 1996م.

5. الصِّله، أبو القاسم بن بشكوال، تحقيق وتعليق: بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010م، مج2.

6. إحياء علو الدِّين، أبو حامد الغزالي، دار ابن حزم، لبنان، ط1، 2005م.

7. جذوة المقتبَس في ذكر وُلاة الأندلس، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الأزدي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط3، 1989م، ج1.

8. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، أبو عبدالله محمد بن فُتُوح بن عبدالله الحُميدي، تحقيق و تعليق: بشَّار عوَّاد معروف ومحمد بشَّار عوَّاد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008م.

9. ديوان الشَّافعي، الإمام الشّافعي، تعليق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، مصر، (دط)، (دت).

10. الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السَّامع، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ط3، 1996م، مج2، ج9.

11. الرِّحلة في طلب الحديث، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1975م.

12. المحدّث المفصل بين الرَّاوي والواعي، الرَّامَهَرمزي، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1971م.

13. آداب العالم والمتعلِّم، النِّووي، مكتبة الصّحابة ، مصر، ط1، 1987م.

14. تعليم المتعلِّم طريق التَّعلُّم، برهان الإسلام الزَّرْنوجي، تحقيق: مروان قبَّاني، المكتب الإسلامي، ط1، 1981م.

15. سير أعلام النُّبلاء، شمس الدِّين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، تحقيق وتخريج: شُعيب الأرناؤوط، ومحمد العرقسوسي، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ط11، 1998م، ج18.

ثالثاً: المراجع

1. أحمد محمد عبدالخالق، مبادئ التَّعلُّم، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندرية، ط2، 2011م.

2. آفات العلم، محمد سعيد رَسلان، دار أضواء السَّلف، مصر، طبعة جديدة ومنقَّحة، (دت).

3. التَّعلُّم أسسه، نظريَّاته وتطبيقاته، إبراهيم وجيه محمود، دار المعرفة الجامعيَّة، مصر، (دط)، (دت).

4. التَّعلُّم والتَّدريس من منظور النَّظريَّة البنائيَّة، حسن زيتون وكمال عبدالمجيد زيتون، عالَم الكتب، القاهرة، ط1، 2003م.

5. ديوان الزَّهاوي، جميل صدقي الزَّهاوي، المطبعة العربية، مصر، (دط)، 1924، ص229.

6. السَّيد محمد نوح، آفات على الطَّريق، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1987م، ج4.
7. صلاح الأمَّة في علو الهمَّة، سيد العفَّاني، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ط1، 1997م، مج1.
8. كتاب العلم، ابن عثيمين، دار الثُّريا، (دط)، (دت).
9. مراتب طلب العلم، محمد سعيد رَسلان، دار أضواء السَّلف، مصر، (دط)، (دت).
10. مُنطلقات طالب العلم، محمد حُسين يعقوب، المكتبة الإسلاميَّة، القاهرة، ط2، 2002م.
11. النُّبَذُ في آداب طلب العلم، حمد بن إبراهيم، مكتبة ابن القيم، الكويت، ط4، 2012م.

رابعاً: المذكِّرات والرَّسائل العلميَّة

1. بحث الأساليب التَّعليمية المستقاة من تراجم البخاري، علي بن إبراهيم الزَّهراني، كلِّية الدعوة وأصول الدِّين، الجامعة الإسلاميَّة، المدينة المنوَّرة.

2. بحث نظريات التعلُّم، علي راجح بركات، قسم علم النفس، جامعة أمّ القرى، السُّعودية.
التَّربية عند ابن خلدون، نُهى عارف، رسالة لاستكمال متطلَّبات نيل درجة أستاذ العلوم، الجامعة الأمريكيَّة، بيروت، 1959م.

3. جهود ابن عبدالبر الأندلسي في مباحث العقيدة، إبراهيم محمد طه بويدَّان، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة الأمير عبدالقادر، الجزائر، 2008م-2009م.
4. حركة تيسير النَّحو العربي في الجزائر، أكلي سورية، مذكِّرة ماجستير مخطوطة، جامعة تيزي وزُّو، 2012م.
منهج الحافظ ابن عبدالبر في الحديث الحسن من خلال كتابه التَّمهيد، سُلاف القِيقط، مذكِّرة ماجستير مخطوطة، جامعة الأمير عبدالقادر، الجزائر، 2000م-2001م.
5. النُّظُم التَّربويَّة ودورها في تشكيل الفكر والسُّلُوك، علي عبدالله العفنان، مركز الدِّراسات والبُّحوث بقِسم النَّدوات واللِّقاءات العلمية، جامعة نايف العربيَّة للعلوم الأمنيَّة، الرِّياض، 2007م.

خامساً: الدَّوريات

1. التّكرار في الحديث النَّبوي، أُميمه بدر الدِّين، مجلَّة دمشق، مج26، ع1- 2، 2010م.
2. التَّعليميَّة وعلاقتها بالأداء البيداغوجيّ والتَّربية، نور الدِّين احمد وحكيمة سبيعي، مجلَّة الواحات للبحوث والدِّراسات، جامعة محمد خضير، بسكرة، ع8، 2010م.

سادساً: الشَّبكة المعلوماتيَّة.

1. الدُّرر السَّنيَّة، موسوعة الاخلاق، معنى التَّواضع لغةً واصطلاحاً، 2016/03/13م.
2. طلب العلم والرِّحلة- التَّفريغ النَّصِّيّ- صوتيات اسلام ويب، محمد صالح المَنجِّد، 2016/02/28م.
3. مقال بعنوان: مفهوم العلم، الحوار المتمدِّن، ساسي سفيان، ع1057، 2004م.
4. مُلتقى الخُطباء، تعريف العُجْب لغةً واصطلاحاً، 2016/03/13م.

فهرس

المحتويات

الموضوع الصفحة

البسملة:.....

الإهداء:.....

الشكـر:.....

مقدمـة:.....أ– د.

مدخـل:.....14–06.

أوَّلاً: مفهوم العلم.....8–6.

ثانياً: مفهوم التعليمية وأركانها.....10–8.

ثالثاً: التَّعريف بابن عبدالبر الأندلسي.....12–10.

رابعاً: أهمية كتاب جامع بيان العلم.....14–12.

الفصل الأول: القواعد التَّربويَّة في كتاب جامع بيان العلم وفضله

المبحث الأول: القواعد التَّربويَّة المتعلِّقة بأخلاقيات العالم.....23–16.

1. التَّواضع.....18–16.
2. ترك المراء.....19–18.
3. التَّرفُّع عن العجب والغرور.....21–19.
4. العمل بالعلم ونشره.....23–21.

المبحث الثاني: القواعد التربوية المتعلقة بآداب المتعلم.....31–24.

1. الصَّبر على طلب العلم.....25–24.
2. السَّؤال والبحث وترك الحياء.....27–25.

3. ملازمة العلماء.....27–28.

4. الرحلة في طلب العلم.....28–29.

5. حسن الخلق والتواضع.....29–31.

الفصل الثاني: القواعد التعليمية في كتاب جامع بيان العلم وفضله

المبحث الأول: القواعد التعليمية المتعلقة بالعالم.....33–38.

1. تهيئة المتعلم.....33–34.

2. التكرار.....34–36.

3. التيسير في التعليم.....36–37.

4. مراعاة القدرات العقلية.....37–38.

المبحث الثاني: القواعد التعليمية المتعلقة بالمتعلم.....39–44.

1. الاستعداد للتعلم.....39–40.

2. المذاكرة.....40–41.

3. السؤال.....42.

4. الحفظ والفهم للعلوم.....43–44.

خاتمــة:.....46–47.

قائمة المصادر والمراجع:.....49–52.

فهرس الموضوعات:.....54–55.